وزارة الثقافة





أيام برلين الأخيرة

رواية

عاطف فتحي

أيام برلين الأخيرة

رواية

عاطف فتحى

وزارة الثقافة





الهيئة العامة لقصور الثقافة
تجليات أدبية

• أيام برلين الأخيرة
• عاطف فتحى
• تصميم الغلاف:
رحاب محمد العمرى
• المراجعة اللغوية: شعبان ناجى
الطبعة الأولى 2013م
الهيئة العامة لقصور الثقافة
• رقم الإيداع: ٢٠٨٤٢/ ٢٠١٣
• الترقيم الدولى: 978-977-718-547-9
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

أيام برلين الأخيرة

إهداء

إلى صوت فيروز السماوى
الذي يعبر الحدود والأزمنة

نوستالجيا برلين القديمة

فى سبتمبر عام1989، قيض لى أن أسافر إلى برلين..عاصمة جمهورية ألمانيا الاشتراكية، أو الشرقية، كما كانوا يطلقون عليها.. فى بعثة دراسية تستغرق عامين، بدعوة من الحزب الاشتراكى الألمانى ولجنته المركزية. لكن تصادف أننى وصلت فى ذروة غليان سياسى راح يتفاقم ويتصاعد فى عنفوانه إلى أن انتهى إلى الغاية المرجوة منه وهو إسقاط النظام القائم فى شرق ألمانيا، وإلحاق تلك الدولة التى لم تستمر سوى أربعين عاماً بألمانيا الاتحادية بنصفها الغربى الرأسمالى، لتتوحد ألمانيا مرة أخرى بعد أن انقسمت إلى دولتين فى أعقاب الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945)

وبسقوط سور برلين فى نوفمبر من عام 1989، وانفتاح كل المعابر المؤدية إلى برلين الغربية أمام الألمان الشرقيين، بدأ سقوط الدولة وسقوط النظام الاشتراكى، ليس فى شرق ألمانيا فحسب، وإنما فى شرق أوروبا كلها رومانيا، المجر، بلغاريا، وبولندا والتشيك، وبعدها سقط الاتحاد السوفيتى نفسه ـ الذى كان يجمع كل هذه الدول والدويلات ـ فى مطلع التسعينات،

لتنتهى القوة العظمى الثانية التى كانت تخلق نوعا من التوازن الكابح للقوة الإمبريالية الأولى المتمثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية التى أصبحت هى القوة الوحيدة المهيمنة على مقدرات العالم والمتحكمة فى مصيره.

والآن وبعد مرور أكثر من عشرين عاماً على سقوط برلين ونهاية الحكم الاشتراكى ينتاب أهل برلين من كبار السن مثلى وبعض الشباب حنين إلى برلين القديمة - إلى برلين الاشتراكية التى كانت تنعم باستقرار مادى وحالة من الأمن الاجتماعى والاطمئنان النفسى ضد تقلبات العالم الرأسمالى، وما يتبعه من بطالة وغلاء وتفشى للعنف والجريمة وأشكال من العنصرية المقيتة.

الآن - بدأ سكان برلين القديمة، يحلمون بها مرة أخرى، بعد أن عانوا - عقب وحدة الدولتين - من البطالة، والعمل بنظام نصف الوقت، والغلاء الفاحش الذى خلق شرائح عديدة من المهمشين الذين ينقبون فى صناديق القمامة عن بقايا طعام ينقذهم من الموت جوعاً، وينامون على الأرض فى أنفاق المترو بحثاً عن الدفء، وهرباً من الموت فى الليالى الثلجية.

الآن - بدأ الحنين إلى برلين الشرق. بشوارعها القديمة وترامها الكلاسيكى. ومطاعمها الدافئة، وحدائقها، وحتى بأسوارها العالية التى كانت تعزل الشرق عن الغرب، هل يمكن القول أن أن الناس ذاقت مرارة وزيف الحلم الرأسمالى وجنة الغرب التى طالما بشروا بها فبدأ

الحنين ينتابها إلى ما كانت تمثله برلين كرمز للحلم الاشتراكى؟!

من يدرى، لعلها إرهاصات عودة الحلم، بالعدالة والمساواة والإخاء.. الحلم بالاشتراكية الحقيقية.. ذلك الحلم الذى لن يموت أبداً فى عقول وقلوب البشر.

المؤلف

-1-

قبل رحيلي عصر ذلك اليوم، أخذت معي جهاز الإستريو كاسيت الصغير الذي أحمله في جيبي مع سماعتيه وبضعة أشرطة انتقيتها على عجل لفيروز وشريطين أو ثلاثة للموسيقى الكلاسيك كان أهمها- فيما أذكر – الفصول الأربعة ل "فيفالدى"، وكونشرتو البيانو الثاني لرحمانينوف.

كان هذا هو زادى الروحي الذي اعتقدت أنه سوف يعينني على احتمال غربتي في بلاد الألمان التي اختارتنى بالصدفة ولم أخترها أنا. فطوال عمرى كنت أحلم بزيارة باريس والإقامة في الحي اللاتيني الذى قرأت عنه كثيرا في الروايات، والتجول في حدائق الشانزلزيه لكن حين تم اختياري من قبل " الحزب " للدراسة والإقامة في برلين الشرقية مدة عام، لم أرفض – فعلى أية حال هي عاصمة أوربية وإن كانت تابعة للكتلة الشرقية، مما يعنى حضارة أخرى وثقافة أخرى وعالم آخر.

رحلت في أواخر سبتمبر من عام 1989 وكان يوم ثلاثاء وعلى متن طائرة تابعة للإنترفلوج.... كان الصيف ورطوبته العالية اللزجة وحرارته المرهقة لا يزال يفرض سطوته على مناخ القاهرة. نظرت من

الكوة الزجاجية المجاورة لمقعدي في الطائرة البوينج الفخمة فلمحت معالم القاهرة في الأسفل ترزح تحت الغبار والحرارة والأدخنة، وانتبانى رغم سعادتي بالرحيل حزن مباغت لمفارقتها ومفارقة أهلى وأحبائى وأصدقائى.

كانت نادية زوجتى فى شهور حملها الأخيرة، وكنت قلقاً عليها وخائفاً لأن الأطباء قالوا لها أنه لم يكن ينبغى لها أن تحمل وتلد وهى فى سن الأربعين مع ظروفها الصحية المتدهورة، فقد كانت تعانى من ضغط الدم المرتفع، والسكر الطارئ، وكان من واجبى ألا أتركها وحيدة مع ابنتى الصغيرة ولاء التى لم تكن تجاوزت - وقتها - الثانية عشرة من عمرها، فى مثل هذه الظروف.

وكنت متردداً فى قبول "المنحة" وأوشكت أن أرفضها واعتذر عن قبولها لكن زوجتى التى كانت تعرف ماذا تعنى لى هذه البعثة التى طالما حلمت بها وسعيت إليها، للحصول بالدراسة الأكاديمية المنتظمة على قدر من المعرفة السياسية والفكرية يتيح لى مركزاً مرموقاً فى الحزب الذى أنتمى إليه، كما ستتيح لى هذه البعثة التعرف على ثقافة وحياة مختلفة، وحضارة إنسانية أخرى أكثر تقدماً..

هونت على - زوجتى - حين أدركت أننى سوف أذعن لظروف مرضها وأشفق عليها فألغى سفرى إكراماً لها، ودفعتنى دفعاً إلى قبول السفر وقالت لى أنها سوف تلد وتقوم بالسلامة، وأنها وسط

أهلها وجيرانها ولن تشعر بالوحدى أو العوز أبداً ـ لكنى إذا أضعت الفرصة ـ على حد قولها ـ فسوف أظل أندم وأتحسر وأحملها الذنب، وربما كرهتها ـ فيما بعد ـ لهذا السبب وكرهت كفلى الوليد لأنهما كانا السبب فى ضياع حلم السفر.

أقلعت طائرتي من القاهرة في السابعة مساء، وكانت الشمس وقتها تتهيأ للمغيب. وكان من المقرر أن أصل إلى مطار برلين في الحادية عشرة مساء، ولم أكن أعرف وجهتي بعد أن أصل... قال لي المسئول الحزبي، إن على أن أنتظر في صالة الوصول وأننى سوف أجد هناك مسئولا رفيعا من اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألمانى في انتظاري.

لفحني الهواء البارد وأنا أنزل من سلم الطائرة واجتياز المسافة القصيرة حتى صالة الانتظار. وأحسست بأنني قد انتقلت فجأة من الصيف وحرارته اللاهبة إلى الشتاء وبرودته القارصة دون مقدمات. كنت أرتدى قميصا قطنيا خفيفا جئت به من موطني، ولم آخذ حذري للتغيرات في الطقس، فوقفت أرتجف في الصالة الواسعة، ترتطم فى أذنى أصوات لغة جديدة لم أعتدها.

وسمعت اسمى فجأة يتردد في الميكرفون مسبوقا بلقب " الهر " فلوحت بذراعي في الهواء كغريق عثر صدفة على من ينقذه، وعندئذ لمحتها غير مصدق وهى تبتسم لي في ترحاب وتلوح بكفها الشقراء وتتقدم نحوى مادة يدها لمصافحتي.... قالت بلغة عربية سليمة تشوبها لكنة

الخواجات :- حمداً لله على السلامة - أنا هيلجا فولكمار المترجمة.

تطلعت إلى وجهها الأشقر الجميل وخصلات شعرها الذهبية وعينيها الزرقاوين زرقة البحر وقلت وأنا أتنفس الصعداء وأضحك وقلبي لا يزال يخفق:

- الله يسلمك

في استراحة كبار الزوار استقبلني المسئول الحزبي الكبير وصافحني بحرارة وعرفتني به مس هيلجا قائلة:

- الهر جونتر جراس المسئول الأيدلولوجى بالمعهد. وعضو اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني.

طلب منى الرجل جواز سفري ثم أعطاه لأحد الموظفين ليقوم بمراجعته وإنهاء الإجراءات وختمه، ثم عاد ومعه حقيبة سفرى وتوجهنا جميعا إلى خارج المطار، حيث كانت هناك سيارة خاصة في انتظارنا، وأفهمتنى هيلجا أننا سوف نتوجه إلى المقر السكنى الذي سأقيم فيها في حي يدعى " بانكوه " في شرق برلين وسوف يكون لدى يوم غد الأربعاء راحة، بعدها سوف أحصل على برنامج الدراسة.

انطلقت بنا السيارة في شوارع المدينة الهادئة الساكنة سكونا موحشا، ولاحظت أنه لا يكاد يوجد مارة في الشوارع الخالية النظيفة في تلك الساعة من الليل.

ولما وصلنا إلى " بانكوه " دخلنا في شارع قرأت لافتة بالإنجليزية عند مدخله باسم " هاينريش مان " وهو كاتب ألمانى معروف، وفى

نهاية الشارع توقفنا أمام مستعمرة سكنية لها بوابة حديدية يحرسها جنود يحملون السلاح، ولم يفتحوا لنا إلا بعد أن أبرز لهم الهر جونتر بطاقة هويته، فأدوا له التحية باحترام، ودخلنا إلى الساحة الخارجية التي تناثرت في جوانبها مبان سكنية تتكون من طابقين وكلها تشبه بعضها البعض.

وكان هناك مبنى آخر مستطيل الشكل، مكون من طابق واحد دخلناه أولا، وعرفت أنه مبنى المطعم والكافتريا للمقيمين بالمكان......وقالت لي هيلجا أنهم قد حجزوا لي عشائي منذ عدة ساعات لأن موعد العشاء هنا في ألمانيا ينتهي في السابعة مساء ولا توجد مطاعم تقدم الطعام بعد هذا الوقت.

وجلسنا معا على منضدة معدة من قبل، كان عليها ألوان من الأطعمة الغريبة واللحوم الباردة وعلى مشروبات كحولية وعصائر.

والحقيقة أننى كنت جائعاً جدا لم أتناول شيئا منذ الصباح....

فالتهمت - وحدي - كل ما طالت يداى من أطعمة وشربت زجاجة كاملة كبيرة من العصير لأنني لم أجد مياها على المائدة... بعدها أخذتنى هيلجا إلى أحد الأبنية السكنية وفتحت لي باب إحدى الشقق في الطابق الأول وسلمتني مفاتيح الشقة بعد أن أضاءتها وتمنت لي نوما هنيئا وغادرتنى..فأغلقت الباب وراءها وخلعت حذائي..وكنت أتمنى أن آخذ حماما دافئا..لكنّ هدوء المكان ونظافته ودفأه جعلني ألقى بنفسي على الفراش الوثير بكامل ملابسي وأروح في نوم عميق.

-2-

المسافة بين الحلم والواقع.. بين الخيال والحقيقة ـ أحياناً ما تتلاشى فى عقلى وتذوب، ويختلط الأمر على حينئذ، فأرى الواقع وكأنه وهم أو سراب خادع، ويبدو لى الحلم أو "الرؤية" أكثر تماسكاً ومصداقية من الحقيقة ذاتها.وربما كان ذلك نوعاً من المرض النفسى أو الشفافية الصوفية، لست أدرى ففى مرات كثيرة، كنت أحلم بوقوع أشياء وبلقاء أناس معينين، ويمر الوقت ويتصادف بعد زمن أن أرى معلماً من المعالم أو ألتقى أناساً لأول مرة، لكننى أحس بألفة تجاه تلك المعالم وكأننى عاينتها من قبل، وهؤلاء الأشخاص وكأننى أعرفهم من زمن بعيد.

ولعل هذا هو سبب خوفى ورعبى فى ذلك الحلم المرعب الذى ظل يراودنى بعد أن قبلت أن أسافر للمنحة الدراسية بألمانيا الشرقية ـ كنت أرى نادية زوجتى فى المنام وهى راقدة على "تروللى" يشبه النقالة ملفوفة فى ملاءات بيضاء مخضبة بالدماء، وابنتى الصغيرة ولاء تدفعها قدرجهدها فى تلك الطرقة الطويلة الباردة المضاءة

بالنيون، وصوت العجلات الصدئة للعربة القديمة يحدث صريراً هائلاً والدماء النازفة بغزارة من رحم أمها المفتوح تلطخ بلاطات السيراميك العريضة.

كنت أقوم من نومي مفزوعاً، أحاول أن أفك طلاسم تلك النبؤة المروعة..هل يعنى هذا الحلم أن امرأتى سوف تموت وحيدة فى ذلك المستشفى متأثرة بذلك النزيف الدموى أو نتيجة لحمى نفاس، بينما أكون غائباً فى بلاد الألمان التى تحقق فيها حلم الاشتراكية الذى أناضل فى بلادى من أجله؟! يالها من نبؤة، وياله من تناقض!!

وقلت لنفسى وقتها أن من الأفضل لى أن أعتذر للرفاق فى حزبنا اليسارى عن قبول تلك المنحة، دون أن أحكى لهم بالطبع عن هواجس، فيتهمونى بالخبل - فقط قلت لهم بأننى أخشى على أسرتى فى غيابى فأقنعونى بأنهم سوف يتولوا شئون أسرتى ويقومون بتقديم الرعاية الطبية الفائقة لامرأتى حتى تقوم بالسلامة وأكدوا لى بأنه قد تم إبلاغ المسئولين فى الحزب الاشتراكى الألمانى باسمى وبياناتى وأن قيادات الحزب هنا تعول على فى الحصول على تلك المنحة ونيل الشهادة لأتمكن بعد عودتى من القياد بتدريب الكوادر الحزبية والعمالية وتثقيفهم، وأننى سوف أشغل بعد عودتى منصباً حساساً ومرموقاً فى اللجنة المركزية للحزب، فأنا الجامعى الوحيد المؤهل والدارس للتاريخ والفلسفة فى منطقتنا العمالية.وقد وقع الاختيار على للسفر الآن،

وللاختفاء عن عيون الأجهزة الأمنية التى بدأت حملة من الاعتقالات فى صفوف كوادر الحزب فى أعقاب انتفاضة العمال فى مصنع الحديد والصلب بالتبين.

وخضعت فى النهاية للأوامر الحزبية الصارمة، نافضاً عن نفسى أوهامى وأحلامى وحزمت حقائبى استعداداً للسفر.

فى منتصف ذلك العام الحافل عام 1989، بدأت القلاقل فى مصنع الحديد والصلب فى منطقة حلوان الصناعية، حين ارتفعت شكاوى العمال للمطالبة بزيادة الحوافز لمواجهة الغلاء..وحقهم فى الوجبة الساخنة رافضين للبدل النقدى الهزيل الذى تصرفه لهم إدارة المصنع.

وارتفعت "شكاوى" وتظاهرات العمال التى قادها رموز اليسار وقيادات الحركة النقابية الشريفة، حتى انتهت بالإضراب الشامل والاعتصام من جموع العمال الساخطين والرافضين لتعنت الإدارة إزاء مطالبهم العادلة..وتدخلت أجهزة الأمن بجحافل من العسكر لفض الاعتصام السلمى للعمال - فى عهد زكى بدر وزير الداخلية آنذاك - وإلقاء القبض على المئات من العمال وقيادتهم.وأصيب أثناء عملية الاقتحام الوحشى عدد كبير من العمال بجراح وقتل عامل بريء - لم يكن فى الاعتصام - بينما هو فى داخل المصنع يقف أمام الماكينة الدائرة لا يقبل مغادرتها.

وبدأت فى تلك الأثناء وبعدها، حملة مسعورة فى صفوف

كوادرنا الحزبية بالمنطقة العمالية، للقبض على زعماء الحركة من الشيوعيين التى زعم الأمن والمباحث أنهم وراء القلاقل التى حدثت.. وكنت أنا واحد من المطلوبين ـ رغم أننى لم أكن عاملاً بالمصنع نظراً لصلتى الوثيقة بزعماء الحركة العمالية، وكتاباتى فى الصحف الحزبية المعارضة التى واكبت أحداث الانتفاضة العمالية ـ كان حظى الغريب أن أكون مقيماً فى تلك المنطقة الصناعية التى يسكنها غالبية من عمال المصانع..، بسبب زواجى من رفيقة عمرى "نادية زغلول" التى تصادف أن أباها كان عاملاً فى مطبعة وله ميول يسارية، وزوج أختها الكبيرة واحدا من عمال مصنع الحديد والصلب ويسكن فى المدينة العمالية فى إحدى الشقق المملوكة للمصنع.

وكان لقائى بنادية صدفة..رتبها لنا القدر، الذى لم أحسن الظن به يوماً ـ فى دار الكتب بباب الخلق التى كنت قد بدأت فى التردد عليها فى الأشهر الأولى من عام 1972 لاستكمال مشروعى الدراسى ومواصلة بحثى لنيل درجة الماجستير فى الموضوع الذى اخترته وهو عن دور العمال والفلاحين فى ثورة 1919 وكنت منضماً وقتها لإحدى الخلايا اليسارية، فحفزنى ذلك لمواصلة بحثى الذى سيمكننى من أداء عملى السياسى، وواظبت على التردد على دار الكتب التى لم تكن تبعد عن مسكنى مع العائلة فى حى درب سعادة القريب.

وقد وصلت إلى تنائج مثيرة فى بحثى، كشفتها قراءاتى للمؤرخين

اليساريين المعروفين كان من أهمها اكتشاف الدور الثورى للعمال فى المدن من خلال العمل النقابى المنظم..والفلاحين فى القرى، فى تحويل مسار الثورة إلى الجوانب الاجتماعية والمطالبة بالعدالة والانصاف، والصدام الذى كان حتمياً مع قواد الثورة من البشاوات والاقطاعين أصحاب شعار "الجلاء التام أو الموت الزؤام"

وواصلت بحثى فى دأب..وفى صباح يوم جمعة من أيام شهر إبريل الذى يتميز بتقلباته، التقيت نادية، التى جاءت إلى قاعة "المطالعة" وجلست بجوارى على طاولة القراءة التى كنت أجلس إليها وحيداً ـ تطلعت إلى مبتسمة تسألنى عن كيفية استعارة الكتب، وهممت بأن أزجرها حتى تبعد عنى ولا تزعجنى، وتبحث لها عن طاولة أخرى ـ لكننى ما أن تطلعت إلى وجهها الأسمر الجميل وعينيها الواسعتين المليئتين بالحيرة والخجل حتى ابتسمت لها لا إرادياً حين بدا لى وجهها أليفاً، ومألوفاً وكأننى قد التقيتها من قبل، وأعرفها من زمن طويل.

نهضت معها عن طيب خاطر، وتركت أوراق بحثى وكتبى المستعارة زخرجت معها إلى قاعة "الفهارس"، وبحثت لها عن عناوين الكتب التى تبحث عنها وعلمت أنها تجرى بحثاً عن "الثورة العرابية" والقوى الاجتماعية المؤثرة فيها حيث كانت فى ليسانس كلية التربية جامعة عين شمس..قسم التاريخ.

وضحكت من الصدف الغريبة وأوضحت لها أننى أيضاً خريج

آداب قسم تاريخ وبعد أن أحضرت لها الكتب المطلوبة، جلسنا معاً في قاعة المطالعة، وراحت تحدثني عن أنها تقوم لأول مرة في حياتها بعمل بحث بهذا الشكل وأن الدكتور رئيس القسم ربط النجاح في مادته بإنجاز هذا البحث المطلوب تقديمه خلال أسبوعين. فشرحت لها كيفية عمل البحث وجمع المادة وترتيبها وتبويبها وذكر المراجع - وتركتها تعمل فانهمكت في القراءة والكتابة، ولم تزعجني أو تحاول أن تكلمني طوال ساعتين - وقرب العصر نهضت لأغادر المكتبة بعد أن جمعت أوراقي وكتبي فرفعت رأسها عن الكتاب الذي كانت تطالعه وقالت:

- هتيجي بكرة؟!

أومأت برأسي مبتسماً.

- إمتى؟

- بعد الظهر.

- ما تنساش الكتب اللي قلت لي إنها موجودة عندك.

- حاضر.. هاجيبها لك معايا.

وحملت كتبي وأوراقي ومضيت.

وفي ظهر اليوم التالي ذهبت إلى المكتبة.. فوجدتها تجلس في نفس المكان الذي تركتها فيه.. كانت قد غيرت ملابسها وارتدت بلوزة حريرية وردية اللون وبنطلون أسود، وكانت تعقص شعرها الناعم الذي

سرحته للخلف، على شكل ذيل حصان، وجلست بجواها وأعطيتها الكتب التى كانت تتناول الثورة والتى كانت بمكتبتى المتواضعة. وتصادف أن عثرت على أوراق مكتوبة حول الثورة وأسبابها والقوى الاجتماعية التى لعبت أدواراً رئيسية فيها فأعطيتها لها. فأخذتها بلهفة وامتنان ووضعتها فى حقيبتها.

وعرفاناً بجميلى أعطتنى قطعة كبيرة من الشيكولاتة، وقالت لى أنها تعزمنى على فنجان شاى إذا لم أمانع، فقبلت عزومتها شاكراً، وخرجنا من قاعة المطالعة معاً ووقفنا فى بوفيه دار الكتب نحتسى الشاى ونتحدث فى أمور شتى.

وقضينا اليوم كله معاً فى المكتبة، حتى غادرناها قرب الساعة الخامسة مساء ميعاد إغلاقها، وتمشينا معاً خطوات قلائل حيث أشارت لى أنها تسكن فى حارة قريبة من هنا فى حى عابدين وأن أباها يعمل مطبعجيا فى مطابع روز اليوسف فى المبتديان، وأشرت لها أنا بيدى نحو درب سعادة، وقلت لها أننى أسكن فى حارة الكتبخانة قرب محكمة الاستئناف فضحكت وقالت:

- إحنا طلعنا جيران.وصافحتنى بحرارة، ولوحت لى بيدها ومضت.

وظللت أتردد على المكتبة طوال ذلك الأسبوع مواصلاً العمل فى موضوع بحثى فالتقيها، ونقضى معاً سحابة النهار كله.. وفى الأسبوع التالى،

استغرقتنى أعمالى واجتماعاتى الحزبية، فغبت عن التردد على المكتبة.

وفى صباح يوم من أيام الأحاد، بينما كنت أغادر منزلى فوجئت بنادية تقف عند مدخله.. اندهشت لمرآها، وسألتها ما الذى أتى بها إلى هنا؟ فقالت أنها كانت تبحث عنى لأننى انقطعت فجأة عن المجيء إلى المكتبة وأنها كانت تحتاجنى.

قلت لها إننى انشغلت فى عملى، لكننى تحت أمرها فى أى شيء فوضعت مرفقها فى مرفقى ومشت بى برفق حتى غادرنا الشارع. مررنا بجوار مبنى دار الكتب، وعرضت عليها أن نطلع ونستكمل بحثها إذا كان هذا ما تحتاجه فقالت لى أنها استعانت بأوراقى وانجزت البحث وقدمته ونالت إعجاب أستاذها.

ضحكت وتطلعت إلى عينيها المليئتين بحب دهشت له لكننى لم أستغرب فقد كنت منجذباً إليها، ومسلماً نفسى لها. كنا نقف أمام دار الكتب على محطة الترام المقابلة، وتصادف أن جاء الترام المتجه إلى ميدان السيدة زينب وفوجئت بنادية تجذبنى من يدى وتجعلنى أستقل الترام معها، وكنت أنقاد لها وأنا أضحك بسعادة مما يجرى لى.

ونزلنا معاً فى ميدان السيدة زينب. ورحنا نتجول معاً - على غير هدى وجلسنا معاً فى أحد المقاهى الشعبية قرب ضريح "الست" وشربنا حمص الشام الساخن. وأصرت على دفع الحساب - فهمست لى بأذنى بأنها جائعة وأنها لم تتناول طعام الإفطار.. فاشترينا سندوتشات الفلافل من مطعم "المالكى" الشهير فى قلب الميدان - وأكلنا، ثم تمشينا

معاً حتى وصلنا إلى "القلعة" ومن هناك ركبنا الترام حتى باب الخلق - حيث افترقنا على وعد باللقاء.

واستمرت لقاءتنا بدار الكتب، ليس بغرض البحث والدراسة فحسب، ولكن لمجرد الجلوس معاً، ثم تجرأنا وصرنا نلتقى فى بعض الكازينوهات الهادئة على النيل فى الروضة بالمنيل - وأطلعتها على بحثى وعلى بعض النتائج التى توصلت إليها، فشجعتنى بحماس على مواصلة البحث وعرضت على أن تساعدنى فى عملية تفريغ بطاقات المادة البحثية. وكتابة وتبويب المراجع.. وفى إحدى لقاءاتنا - بعد شهر من تعرفى بها - قالت لى فجأة أنها حدثت أمها وأباها عنى، وأنهما يرحبان بزيارتى لبيتهم المتواضع للتعارف، ولشكرى على ما أسديته لها.. وقد اندهشت قليلاً لهذا الأريحية والتفتح من أسرة بسيطة كهذه لكننى رحبت بالدعوة وحددت لها ميعاداً بعد ظهر يوم الجمعة - يوم العطلة الأسبوعية.

وفى يوم الزيارة ارتديت ملابسى العادية - القميص والبنطلون - ولم أحفل بارتداء البدلة والكرافت كما نصحنى أحد أقاربى.. واشتريت صينية بسبوسة باللوز من حلوانى الشامية المشهور وذهبت إلى منزل نادية فى "باب باريس" بحى عابدين مشياً على قدمى.. وقابلنى أحد السكان عند المدخل فسألته عن شقة الأسطى زغلول، فأشار لى الرجل بإصبعه قائلاً:

ـ آخر دور ـ فوق السطوح.

ولم أفاجئ في الحقيقة فقد قالت لى نادية أنهم يسكنون فى شقة صغيرة مكونة من حجرة وصالة فوق سطوح إحدى العمارات.. سررت واندهشت حين أبصرت مصعداً قديماً حاولت استعماله لكننى اكتشفت أنه معطل وأنه أصبح أثراً من آثار العز القديم لساكنى العمارة الأثري الذين تدهورت أحوالهم المادية وصاروا أقرب إلى البروليتاريا منهم إلى البرجوازية الصغيرة التى ينتمون إليها مثلى.

وصعدت الطوابق الستة على قدمى ـ وتوقفت قرب السطوح لألتقط أنفاسى ـ وفى تلك اللحظة أبصرت بسيدة أربعينية سمراء ـ خمنت أنها أم نادية ـ ترتدى جلباباً من قماش الدبلان الرخيص فوقه طرحة بيضاء تلف رأسها وتنسدل على صدرها. تطلعت إلى وابتسمت وقالت:

ـ أهلاً يا ابنى ـ انت الأستاذ زميل ناديى بنتى؟!

ابتسمت وأومأت لها برأسى ـ فدعتنى للدخول ـ وأطلت نادية عندئذ وكانت منهمكة فى نشر قطع الملابس المغسولة على الحبال الممتدة فى أرجاء السطوح الفسيح.

تقدمت منى وهى ترتدى "بيجاما" ملونة بللت صدرها مياه الغسيل، وضحكت لى بصفاء وبراءة ومدت لى يدها لتصافحنى، فاكتشفت أنها مليئة بالمشابك ـ ناولت للأم لفافة الحلوى وهممت بالدخول معهما إلى

الغرفة، حين سمعت صوت جهورى عريض يرحب بى:

- يا ألف مرحب بالأستاذ - أهلاً وسهلاً.

تلفت حولى فلمحت برجاً خشبياً للحمام الزاجل مُقاما فوق سقف الشقة المتواضعة - كان عم زغلول - والد نادية يرتدى جلباباً بلدياً أبيض اللون وكان منهمكاً فى إطعام أسراب الحمام الذى يتصاعد هديله وسقايته وكانت تلك هى هوايته الوحيدة والمفيدة التى يعطيها وقت فراغه حين يتواجد بالبيت.

نزل عم زغلول من برج الحمام على سلم خشبى مركون على الحائط فتطايرت حوله بضع حمامات رفرفرن برشاقة ونزلن إلى أرض السطح يلتقطن الحب المتناثر.

صافحنى الرجل بحرارة وأمسك بذراعى بلطف ودخلنا إلى المسكن الذى لم يكن سوى غرفة نوم واحدة بها ثلاثة أسرة، وصالة رحبة تستخدم كحجرة معيشة حيث تتناثر فى أرجاءها - ثلاث كنبات بلدى - ومنضدة يأكلون عليها وتستخدمها نادية كمكتب لاستذكار دروسها وتلفزيون مثبت على حامل معدنى قرب الحائط..وكانت هناك صورة كبيرة فى صدر الصالة لجمال عبد الناصر وأخرى على الجدار المقابل المدهون بالجير الأبيض لجيفارا.

وكان المطبخ ودورة المياه والحمام خارج الغرفة فى ركن منزو

بالسطوح لكن أهم ما لاحظته فى هذا المسكن البسيط، وهو نظافته الشديدة وذوقه وبساطة وكرم ساكنيه.

وبدلاً من أن أجلس بضع دقائق للتعرف بعائلة نادية كما رتبت بقبت أكثر من ثلاث ساعات تناولت خلالها الغداء معهم، وكان ملوخية بالأرانب وحمام محشى بالفريك، ولعبت الدومينو مع عم زغلول وتباسطت فى الحديث مع أم نادية حول أفلام محمد عبد الوهاب القديمة التى تعشقها وخصوصاً يحيا الحب الذى دخلته مع عم زغلول عدة مرات عقب زواجهما، وحكت لى عن قصة الحب التى جمعت بينهما والرجال الأغنياء الذين تقدموا لها لكنها فضلته عليهم جميعاً.

وخرجت بعد تلك الزيارة - التى تلتها زيارات عديدة - وقد قر قرارى على التقدم لخطبة نادية والزواج منها - رغم إدراكى للفوارق الطبقية بين أسرتى وأسرتها، والمعارضة القوية والعنيفة - التى كنت أعرف جيداً - أننى سوف ألقاها من أهلى وعشيرتى.

البورجوازيون الصغار هم أردأ أنواع البورجوازية كطبقة، لأنهم غالباً حالمون، انتهازيون، طموحون، وصوليون، ثوريون لأقصى حد، انهزاميون ومتراجعون حسب المد والجزر السائدين.

وقد كنت أنا مع الأسف منتم لهذه الطبقة بحكم المولد والمستوى المادى والاجتماعى، فقد كان أبى موظفاً حكومياً من صغار كبار الموظفين، يحصل على راتب شهرى محترم، وكانت أمى من عائلة تجارية قاهرية

عريقة، أصحاب متاجر البويات والحدايد بشارع (الخليج المصرى سابقا).
وكان حظ أمى العاثر هو الذى أوقعها فى الزواج من أبى الذى لم ينل أى نصيب من الثروة ولم يعرف كيف يجمعها، وظل يكافح طوال عمره من أجل تعليم أبنائه تعليماً لائقاً يوفر لهم وظائف حكومية محترمة إلى أن خرج على المعاش وأنهى رسالته فى الحياة، والتحق مع رفاقه بقهوة المعاشات فى ميدان الأوبرا قبل أن تحترق فى عهد الرئيس المؤمن.

لم يكن أبى طموحاً مغامراً مثل أشقائه الذين قدموا من الصعيد وشقوا طريقهم فى عالم تجارة الساعات والأجهزة الكهربائية، وأصبحوا يمتلكون مؤسسات وشركات بشارع شريف وشارع الجمهورية، وتعلق أمل أمى فى النهاية على أنا وعلى أخى الأصغر فى أن نحصل بالمصاهرة من إحدى العائلتين على ما لم نحصل عليه عن طريق التجارة والشطارة.

كانت أمى تطمع فى أن أتزوج من بنات أخيها الحاج "محمد سليم" - خالى الذى كان مليونيراً، وكانت ابنته هى المرشحة لى - وكان خالى يرحب بذلك، على اعتبار أن يكون "زيتنا فى دقيقنا" كما يقول المثل الشعبى، ولم أبد وقتها اعتراضاً أو قبولاً، فقد كان المشوار أمامى لا يزال طويلاً وكنت قد قررت إلا أشرع فى الزواج إلا بعد الحصول على درجة الماجستير.

وكانت هناك أيضاً ابنة عمى "حسنية" وهى فتاة من أصول تركية من ناحية الأم - بارعة الجمال، ممشوقة القد - وكانت متعلقة بى منذ

الصغر لأننا قضينا جزءاً كبيراً من طفولتنا معاً، فضلاً عن ترددي الدائم على منزلهم بجاردن سيتى للمذاكرة معاً ـ وكان أبى أيضاً يأمل ـ دون حماس ـ في مصاهرة أخيه الأكبر "يوسف" ويحصل بالزواج لابنه الكبير على نصيب من ثروة أخيه الطائلة التى ستؤول حتماً لابنته الوحيدة.

وكنت أنا صاحب قرار الاختيار ما بين الحصول على نصيب عادل من ثروة عمى أو خالى عن طريق الزواج من ابنة أى منهما، لكننى أنا الذى طالما شعرت بالدونية تجاه عائلتى أمى وأبى الثريتين، لإدراكى مدى الهوة المادية التى تفصل بيننا وبينهم لأننا الفرع الفقير الذى يستوجب إحسانهم.

وكنت ـ في دخيلتى ـ أشعر بالسخط لأننى معروض كسلعة سيتنازلون لقبولها من باب العطف والإشفاق، ويراودنى إحساس مؤلم بأننى حتى لو تزوجت من إحدى بناتهم فسأظل في نظرهم الأدنى في السلم الاجتماعى . . من ثم "ضربت عرض الحائط" بالغنائم المنتظرة التى كانت كفيلة بأن تجعلنى أعيش بقية حياتى "سلطان زمانى" مستغنياً عن الوظيفة والماجستير، ومشقة الحصول على شقة محترمة وتأثيثها، وقررت أن أتزوج بالفتاة الفقيرة "نادية" بنت الأسطى زغلول المطبعجى، وصاحب برج الحمام في أعلى سطوح باب باريس، لأبدأ معها من الصفر، وليكن ما يكون فذلك هو اختيارى الحر ـ ولا أنكر أننى كنت وقتها تحت تأثير إيمانى الحماسى والعاطفى بالاشتراكية

والأفكار العظيمة التى كانت سائدة، عن الصراع الطبقى، ونظرية فائض القيمة وضرورة المساواة بين البشر والعدالة الاجتماعية وغيره.

وكان للمنايفيستو الشرعى الذى كتبه ماركس وكان معروضاً حتى أواخر الستينيات بالمكتبات، وتأثيره الهائل فى مجرى حياتى وفكرى، فقد سطعت أفكاره الثورية فى عقلى ووجدانى سطوعا هائلاً.. أنار الطريق أمامى ووضع يدى على بداية الرؤية الصحيحة التى كنت أحتاج إليها لأبصر الأشياء على حقيقتها، كما أكسبتنى القوة والعزيمة والإصرار على أن أتمسك باختيارى لـ (نادية) ومواصلة الطريق معها مهما كان الثمن.

فى سبتمبر من عام 1972، أستدعيت لأداء الخدمة العسكرية، خصوصاً بعد انتهاء أسباب التأجيل الممنوح لى للدراسة، وكان من المفترض أن أستكمل بحثى لنيل الدبلوم والماجستير خلال السنوات التالية بعد تسريحى، ولكن الخدمة العسكرية التى افترضت إنها ستمتد لسنة أو سنتين على الأكثر فى ظل الظروف التى كانت تمر بها البلاد فى أعقاب نكسة 1967، استمرت خمس سنوات حتى تم تسريحى فى منتصف عام 1976، ولكن علاقتى بنادية وأسرتها استمرت، وكانت رسائلها وأنا فى الجبهة هى سلوتى وعزائى الوحيد.

وفى نوفمبر من عام 1976 عقدت قرانى على نادية دون انتظار موافقة أهلى - أبى وأمى - الذين أعلنا رفضهما القاطع، وقد صحبنى

أخى الأصغر، دون علمهما فى جلسة كتب الكتاب كشاهد، ..وحضر زوج أخت نادية الأسطى "فرج الشرقاوى".. العامل والنقابى فى مصنع الحديد والصلب كشاهد ثان،.. وتم كل شيء فى هدوء، وبساطة فى حفل متواضع أقيم فوق السطوح.

وكنت محرجاً من غياب عائلتى الذى يعنى بكل وضوح رفضهم لزواجى من ابنة هؤلاء الناس البسطاء الذين فهموا الموقف على حقيقته ولم يهتموا كثيراً لأننى لم أكن أعبأ بهذا الرفض مطمئناً نفسى بأن الزمن كفيل بإصلاح كل شىء.

وفى خلال شهرين اشترينا الأثاث الضرورى ـ حجرة النوم والأنتريه وأدوات المطبخ وساعدنا عديلى الأسطى فرج فى العثور على شقة حجرتين وصالة فى مدينة الصلب بإيجار خمسة جنيهات فى الشهر شاملة استغلال المياه والكهرباء..وقبل أن نستعد للزفاف قامت الانتفاضة الشعبية فى يناير سنة 1977، احتجاجاً على الغلاء الفاحش ـ بمقاييس ذلك الزمان ـ والانفتاح الاقتصادى الذى كان يعنى التحول نحو الرأسمالية النهب والخطف وبيع مقدرات الوطن ـ وكذلك، الصلح مع العدو الإسرائيلى التى كانت ترتب فى الخفاء بمباركة ومشاركة أمريكية.وحدثت مواجة عنيفة من الاعتقالات لكل من اشتبه فى مشاركته قولاً وفعلا فى الانتفاضة الشعبية التى أطلق عليها السادات اسم "انتفاضة الحرامية" سخرية وانتقاصا من الحركة الشعبية

العفوية التى صبغت تلك الانتفاضة الشهيرة وتم اعتقالى فتأجل زفافى عدة أشهر.

وفى خضم هذه الظروف، وبعد التفاهم مع حماى الأسطى زغلول وزوجته أخذت عروسى دون صخب ورحلت إلى تلك المنطقة العمالية بالتبين وحلوان لأكتشف بعد وقت قصير أننى نزلت فى قلب الحركة اليسارية فى مصر ـ الحركة التى يقودها كوادر الطبقة العاملة المناضلة فى ظروف جذر ثورى ونظام معادى لكل ما أنجزته الناصرية من مكاسب للطبقات الكادحة ـ وسرعان ما أصبحت جزءاً فعالاً فى تلك الحركة.

-3-

حينما فتحت عيني مستيقظا من نوم أدركت كم كان طويلا – من نور الشمس الساطعة في أرجاء الحجرة الغريبة على – انتابتني الحيرة والدهشة المشوبة بفرح غامض، حتى ظننت أننى في حلم من أحلام اليقظة.

ترى أين أنا ؟! وما الذى أتى بي إلى هذا المكان البهيج والغريب ؟ومتى جئت ؟ وكيف ؟ولماذا ؟

لم أستطع الوصول إلى إجابات شافية على الفور للأسئلة التي تدافعت إلى ذهني، فحاولت أن أسترخى في الفراش لأعيد تنظيم أفكارى متأملا فيما يحيط بي، لعلى أصل إلى تفسير مقنع للوضع الغريب الذي ألفيت نفسي فيه.

وكانت الحجرة التي وجدتني فيها يغمرها دفء يسرى في الأوصال ويخدرها، وكان الفراش الوثير النظيف والوسادة البيضاء المربعة المحشوة بريش لين والملاءات الناصعة وسماء الحجرة الرائعة بلون الحليب والتي تتوسطها كعكة من النيون المضفر الشفاف، وكذا

الجدران الأبنوسية التي عُلقت في أرجائها لوحتان لمناظر طبيعية تمثل غابات شتوية كللها الجليد والمكتب الصغير الملاصق لخزانة الكتب بجوار النافذة الزجاجية العالية العريضة التي تكاد تشغل أكثر من نصف الجدار المواجه لى،التي انزاحت ستائرها القطيفة داكنة اللون لتكشف لى عن سماء رمادية مطرزة بسحب فضية، بدت من تحتها هامات أشجار الصنوبر الشماء.

كان كل شئ من حولى يضاعف من حيرتي، وازدادت دهشتي حين تناهى إلى سمعي فجأة صوت غناء هامس بلغة أجنبية لا أعرفها، وقفزت من فراشي فاستقرت قدمي على الأرضية الباركيه المكسوة بسجادة قصيرة كستنائية اللون.

تقدمت من النافذة بحذر، ولاحظت على الفور أنه لا يوجد هنا شيش من الخشب خلف الزجاج بل توجد نافذة زجاجية أخرى ارتفاعها يقارب المتر ونصف المتر وتفتح للخارج، وتشد بصري عبر الزجاج الشفيف مساحة الخضرة الهائلة المترامية أمامى والمحيطة بي...بساط هائل من الخضرة التي تخطف الأبصار برونقها، تتخللها مجموعات من أشجار الصنوبر الهيفاء الرشيقة.

ولفت نظري تلك الفتاة الشقراء الجميلة ذات الشعر الذهبي المقصوص كما الصبيان " الأجرسون" والتي ترتدي بدلة من الجينز الأزرق وتمسك بيدها مقصا صغيرا تقلم به النباتات والأزهار في الأحواض الرخامية المحيطة بالمبنى، ولمحت عن بعد بعض الفتيات

الشقراوات يخرجن من مبنى يشبه الفيلا ويجاور المبنى الذي كنت أطل منه.

فتحت النوافذ الزجاجية على سعتها فلفحني هواء بارد اقشعر له جسدي، وتناهى إلى سمعي صوت لهجة أجنبية لحديث كان يدور بين الفتاة التي تعتني بالورود وبين زميلة لها كانت تدفع أمامها عربة صغيرة بعجلة واحدة تكومت فيها شتلات الزهور.

وفجأة سطعت في ذهني الحقيقة التي لم أدركها فور صحوى يا الله.. إننى هنا في ألمانيا.. في برلين التي وصلتها عند منتصف ليلة البارحة.

ياه... أخيرا حط بي الرحال في المدينة العريقة، عاصمة جمهورية ألمانيا الديمقراطية الاشتراكية " ياله من صبح جميل " هتفت لنفسي وأنا أقفز إلى فراشي الجديد بعد أن أغلقت النافذة وجذبت الستائر قليلا وأخذت أحاول استيعاب الحقائق الجديدة على مهل.

بهرتني برلين في الأيام الأولى من إقامتى فيها، بجمال شوارعها الساكنة وكأنها تخلو من الأحياء، حتى إننى كنت أتمشى في الشارع الطويل الذي يقع فيه المبنى السكنى المنعزل الذي اختاروه لنا في بانكوه حيث كنا نجاور السفارة الصينية التي تقع على طرف شارع "جوته".

كنت أتمشى وأنا أتسمع صوت وقع خطواتي على الأرصفة المفروشة بكثافة بأوراق الخريف الذابلة المتساقطة، متأملا نمط العمارة السائدة بفخامتها وهيبتها المقبضة.

ولفتت برلين نظري أيضا بحدائقها الفيحاء التي تنتشر في كل حي من أحيائها، وبمفاهيمها ومطاعمها العامرة بفتيات كملكات للجمال يخدمن فيها، وبحفلات الموسيقى الكلاسيكية الراقصة لشتراوس في صباحات الأحد في الحدائق العامة بميدان ألكسندر في قلب المدينة التي تشم فيها عبق التاريخ الجيرمانى العريق وتلتقي فيه بسحن من جميع أنحاء الدنيا، الأسيوى والأفريقى والعربي والتركي هاهنا وطن الاشتراكية التي تحققت وتجسدت في الواقع.

______•••••______

فى إحدى جولاتى فى أرجاء المدينة، استرعى انتباهى فى أحد الميادين الكبرى تمثال برونزى ضخم يمثل امرأة ورجلين متلاصقين كتفاً بكتف، يحملان الجواريف والمقشات "والمقاطف" وسألت وولف المترجم عما يمثله هذا التمثال الغريب، فقال لى أنه يمثل الرجال والنساء الذين حملوا على عاتقهم تنظيف المدينة من الآثار التى تركتها الحرب والدمار الذى خلفته، ففى أعقاب الحرب واستسلام ألمانيا، كانت برلين يعمها الخراب من كل صوب، مبانى مهدمة، وجسور محطمة متناثرة، وشوارع امتلأت بمختلف الحفر العميقة التى خلفتها القنابل التى ظلت تنهمر على المدينة المحاصرة طوال أسابيع متتالية وتعين على أهل المدينة الذين بقوا أحياء بعد الحرب أن يزيلوا آثار كل هذا الدمار وينظفوا المدينة التى أصبحت مدينة أشباح، وهكذا تكونت فرق إزالة

الركام والحطام من النساء وممن تبقى من الرجال، واستمروا يعملون بهمة وعزيمة طوال أشهر عديدة حتى تمكنوا من تنظيف المدينة، وبدأوا فى الترميم والإصلاح وإعادة البناء.

وقال لى وولف أيضاً، أن معظم العبء فى إزالة الركام والترميم وإعادة البناء وتسيير كافة شئون الحياة فى المدينة، وقع على النساء وهن فى غالبيتهن أرامل فقدوا رجالهن فى الحرب الملعونة.

وبالفعل استرعى انتباهى فى الأيام الأولى من وجودى فى برلين أن النساء هن العنصر السائد فى كل مناحى الحياة، ففى الترام كانت هناك النساء يقدن الترام والأتوبيس، وفى مترو الأنفاق أيضاً، كنت أتطلع فى دهشة غلى تلك المرأة الشابة التى ترتدى الجينز وتقود قطار المترو ووجهها يحمل كل مظاهر الجد وفى مكتب البريد كانت الغالبية من النساء ناهيك عن المطاعم والمحلات والمقاهى، الرجال هم الأقلية، والنساء يدرن المدينة ويتحكمن فى كل شيء.

ولم تكن هذه الظاهرة حكراً على ألمانيا الشرقية فقط، بل كانت أيضاً فى ألمانيا الغربية التى تحكم فى إدارة شئونها الأمريكان، وأجهزة مخابراتهم، وإذا كانت روسيا والجالية الروسية فى ألمانيا الشرقية قد ساعدت فى بناء الدولة على النسق الشيوعى ومن خلال حكم الشيوعيين فإن أمريكا التى أغدقت المال فى ألمانيا الاتحادية عب مشروع ماريشال، وقد نعاونت مع من تبقى من النازيين ـ رجال هتلر الذين تبقوا

فى أعقاب الحرب ـ لتحكم قبضتها على البلاد وتقو بتصفية المعارضين ونفيهم وهذا باعتراف رجال المخابرات الأمريكية C.I.A فى عهد الأم دالاس ـ شقيق وزير الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس ـ الذين كتبوا فى مذكراتهم عن تلك الحقبة وعن أساليب الحرب الباردة التى بدأت فى أعقاب انتهاء الحرب وتقسيم ألمانيا.

———•••••••———

في اليوم التالي لوصولي، وكان يوم أربعاء، وبعد أن قمت بإفراغ حقيبتي في الدولاب الصغير جوار الفراش وغيرت ملابسي استعدادا للخروج فوجئت بطرقات رهيفة على بابي...قلت لنفسي، ربما كان أحدا من الإدارة جاء ليستقبلني ففتحت الباب لأجد أمامى فتاتين، إحداهما بيضاء ذات شعر كستنائى معقوص على هيئة ذيل حصان، وعينين عسليتين واسعتين، والأخرى سمراء تميل للطول، رشيقة القد ولها شعر ناعم، أسود فاحم، طويل ومنسدل على كتفيها...قالتا معا بلغة عربية سليمة:

- صباح الخير يا مصري.

قلت مبتسما :

- صباح النور

قالت السمراء:

- نحن زملاؤك في السكن وفى الدراسة..أنا ليلى من البحرين...

ومدت يدها وصافحتني بحرارة.

وأضافت زميلتها:

- وأنا نورس من فلسطين.

كنت أعرف أن تلك ليست أسماءهما الحقيقية بل هي الأسماء التي يحملانها هنا للتورية كاحتياط أمني متبع.

أومأت لهما برأسي وعرفتهما باسمي المستعار أيضا، ودعوتهما للدخول فدخلتا، وجلستا على المقاعد المجاورة للنافذة والمكتب.

قالت نورس:

- أنت المصري الوحيد في الدفعة كلها ؟

أومأت برأسي موافقا، قالت:

- هل ينتظر وصول آخرين ؟

قلت:

- لا أظن

قالت ليلى البحرينية:

- الدراسة سوف تبدأ صباح الاثنين القادم بالمعهد أمامنا أربعة أيام فقط للاستعداد.

قالت نورس:

-ستعقد المجموعة العربية، أو مجموعة الشرق الأوسط كما يطلقون عليها، اجتماعا بعد ظهر اليوم للتعارف.

- ماذا تعنين بالمجموعة العربية.

قالت:

- مجموعة الدارسين العرب القادمين من البلدان العربية ومنطقة الشرق الأوسط وهم الذين يشغلون هذا المبنى السكنى.

وفى صالة الاجتماعات بالمبنى، تعرفت بالرفاق القادمين من العراق والأردن وكان أغلبهم من الأكراد المقيمين خارج أوطانهم وعدد قليل من اللبنانيين والسوريين الذين أصبحوا من أصدقائى المقربين على الفور وكان أقربهم إلى " على " الذي اكتشفت أن والده كان سفيرا سابقا في موسكو.

وكان الفوج الفلسطيني هو أغربهم إذ كان يضم اثنين من عرب فلسطين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية هما جابر من سكان رام الله ومفيد من ضواحي القدس، وقد حضرا ممثلين للحزب الشيوعي.

وفى الاجتماع تم انتخاب لجنة من الدارسين، تضم ثلاثة من المبعوثين لرعاية شئون الدارسين.

ومبعث دهشتى هو أننى كنت بمفردى، لا أملك سوى صوت واحد فى الاقتراع السرى الذى تم، والذى كان تكتل العراقيين والأكراد وراء مرشحهم هو المتوقع فوزه لما يتمتع به من أصوات فضلاً عمن سيتحالفون معه غير أننى علمت فيما بعد أن السوريين واللبانيين والفلسطينيين وقفوا معى، فرجحت كفتى وفوزى.

———•••••••———

في صباح يوم الخميس جاءت هيلجا المترجمة لتصحبني مع آخرين إلى السوبر ماركت في ساحة " ألكسندر بلاتز " لشراء بعض الملابس والمستلزمات الشتوية.

ركبنا الترام في نهاية الشارع، ولفت نظري أن سائقة امرأة شابة ترتدي الجينز، وأنه لا يوجد فيه كمساري لقطع التذاكر مثلما يحدث عندنا في مصر... فأنت تضع النقود في صندوق معدني وتسحب تذكرة من آلة معدنية مخصصة لذلك، ولا رقيب عليك في هذه المسألة سوى ضميرك.

وتوقف بنا الترام عند محطة مترو الأنفاق " الأومان " فنزلنا مع مرشدتنا إلى تحت الأرض عبر الدرجات الحجرية وركبنا القطار ذى اللون البرتقالي الذي قادنا إلى أجمل وأشهر ميدان في برلين، حيث رأيت بعيني لأول مرة سوبر ماركت أوروبى شامل وضخم كهذا الذي رأيته في العاصمة.

كان السوبر ماركت يشتمل على طوابق عديدة تبلغ العشرة، يربط بينهما سلالم ميكانيكية تعمل بالكهرباء وكان كل طابق منها مخصص لسلعة أو سلع معينة، فهناك طابق للأطفال وملابسهم وألعابهم، وطابق آخر للملابس والأجهزة الرياضية وطابق للمصنوعات الجلدية.... الخ.

وصعدت بنا هيلجا إلى قسم المعاطف وملابس الشتاء، حيث قمت باختيار معطف صوفي ثقيل لى وحذاء طويل الرقبة مبطن من الداخل

بالفرو وملابس داخلية صوفية وقبعة جميلة تغطى الأذنين وكوفية من الصوف، ودفعت هيلجا ثمن كل مشترواوتنا وقالت لنا أنها هدية من الحزب وهى أشياء ضرورية لا غنى عنها في شتاء برلين القارس.

وودعتنا عند محطة مترو الأنفاق، وتركتني في صحبة رفاقي في السكن على اعتبار أننا عائدون معا، لكنهم تركوني على رصيف المترو متعللين بأنهم سوف يتجولون في ميدان ألكسندر ويعودون على العشاء... فركبت المترو وحدي ونزلت في النهاية وصعدت إلى محطة الترام وركبت وقلت لنفسي إننى أعرف جيدا محطة شارع هينريش مان في بانكوه ولن أتوه. ولما توقف الترام عند الشارع الذي تخيلت أنه شارعي نزلت ورحت أتمشى باحثا عن شارع هاينريش مان أو السفارة الصينية التي تجاوره.... لكننى لم أعثر لهما على أثر فقلت لنفسي، إذن لقد تهت في شوارع برلين أيها البرىء.

رحت أتمشى في الشوارع الغريبة على وأنا أحدق في السحن الأجنبية التي لا تعبأ بأحد، وحاولت أن أستوقف بعضهم لأساله لكنهم، إما كانوا يتركونني ولا يردون على أو كان بعضهم يتوقف ويسمع لسؤالى وعند سماعه لغتي الإنجليزية الركيكة كان يعتذر ويمضى في طريقه.

ولم أكن أعرف الألمانية بالطبع لأ تحدث إليهم بها، فأدركت عندئذ حجم المأزق الذي وقعت فيه، ولحسن الحظ مررت بشارة مرور وقعت عيني عندها على شرطي في ملابسه الرسمية، فتقدمت منه وأخرجت

من جيبي ورقة مكتوبا فيها عنوان المقر السكنى.. .فلما رآها الرجل كلمني باحترام زائد وأشار لى إلى شارع جانبي لأمضى إلى نهايته فشكرته ومضيت.

وبالفعل عند نهاية الشارع، أبصرت محطة الترام الذي كان ينبغي أن أنزل عندها، وبعدها بقليل كان شارع هاينزليش مان الكثيف الأشجار، فتنفست الصعداء وعدت إلى قواعدي سالما، وقلت لنفسي إننى يجب أن أجوب شوارع برلين وأختبرها شارعا شارعا على قدمي حتى لا تحدث معي هذه المهزلة مرة أخرى.

-4-

نسم علينا الهــوى	من مفـرق الوادي
يا هوى دخل الهوى	خدنى على بـلادي

كان صوت "فيروز" الملائكي المنبعث من المسجل يرن بخفوت في أرجاء الحجرة فينفذ إلى أعماق روحي، ويردني إلى العالم الذي افتقدته. ولم أعرف قيمة أغانى فيروز التي حملتها معي إلا بعد أن اكتويت بنار الغربة ومرارتها، وغمرني الإحساس بالوحدة والعزلة والانفرادية وأشقاني الحنين إلى بلادي وأهلى ولغتي.

كنت أسمع إليها وأنا في غرفتي وحدي، وأشعر بالألفة وأنا أنصت إلى كلماتها التي كانت تعزيني وتوخز قلبي في الوقت ذاته كانت أصعب الأوقات هي أيام الأجازات التي تمتد من منتصف يوم الجمعة إلى صباح الاثنين بداية الأسبوع... حيث إننى كنت خلال الأيام الأخرى انشغل بالدراسة والتحصيل في المعهد، فأخرج من المنزل في

صباح الثامنة ولا أعود إلا في السادسة مساء. فأتناول عشائي وأجلس بعدها قليلا أمام التليفزيون محاولا أن أفهم دلالة الصورة عوضا عن فهم اللغة التي لم أكن قد أتقنتها بعد.

كنت أخرج في صباحات السبت فأتمشى في أرجاء الحى..وقد اكتشفت بمرور الوقت وجود حديقة صغيرة للحى – مثل كل الأحياء– على مبعدة قليلة من مبنانا السكنى في نهاية شارع هاينريش مان.

وتبينت بعد فترة أن مرتاديها القلائل هم من العجائز وكبار السن الذين يصحبون الأطفال أحيانا.

كانت الحديقة والممرات المؤدية إليها مليئة بالأشجار التي جردها الخريف من أوراقها ، وافترش الأرض بأكوام من تلك الأوراق اليابسة المصفرة التي كانت تطقطق تحت قدمي وتتكسر وأنا أطؤها رغما عنى.

وتذكرت كلمات أغنية فيروز التي كنت سمعتها بالأمس:

" ورقه الأصفر شهر أيلول

تحت الشبابيك

ذكرني وورقه ذهب مشغول

ذكرني فيك "

والتمعت في مخيلتي صورة نادية زوجتي التي تركتها وهى حامل في شهورها الأخيرة وصورة ابنتي ولاء، وتذكرت أننى لم أحادثها

تليفونيا منذ جئت سوى مرة واحدة.، وعزمت على مكالمتها أوائل الأسبوع القادم بعد أن أحصل على الراتب الذي يصرفونه لنا أوائل كل شهر لأن ثمن المخابرة الدولية يكلف مالا يقل عن مائة مارك.

تقدمت نحو مدخل الحديقة الذي كان يقف على جانبيه تمثالان رخاميان لطفلين عاريين يعزفان على آله الفلوت. .ولمحت بعد المدخل بقليل مقعدا خشبيا يطل على بحيرة صناعية صغيرة يسبح فيما سرب من البط بنى اللون صغير الحجم خفيف الوزن له القدرة على الطيران.

كنت أجلس بالساعات أستمع لزقزقة العصافير ونعيق البوم والغربان وسط سكون الحديقة...وتعلمت من الزائرين والعجائز القلائل أن أرمى للبط الخبز لأستمتع بمرآه وهو يتقافز متكالب بمناقيره لاصطياد الطعام.

وكنت بعد زيارتي للحديقة أنهض لأغادر الحديقة من بوابتها الخلفية لأمر بمقبرة فسيحة مليئة بشواهد رخامية كئيبة.طويلة ومهيبة. كنت أظنها مقابر عادية لموتى من الألمان، لكنني لم أكتشف إلا بعد حين أنها مقبرة يهودية، قيل لي أنها لضحايا النازيين فتجنبت المرور بها بعد ذلك لما كانت تثيره في نفسي من مشاعر مقبضة كنت في غنى عنها.

وكانت سلوتى الأخرى في غرفتي هي حفلات الموسيقى الكلاسيك التي كنت أحضرها مجانا من خلال الدعوات التي كان

مسئولو العلاقات العامة بالحزب يرسلونها إلينا لتقضية الأجازات. وكانت دعوات متنوعة إلا أن أغلبها كان لحفلات الديسكو ومباريات كرة القدم، أما أقلها فكان لحفلات الأوبرا والموسيقى الكلاسيك التي اكتشف زملاؤنا بالسكن والمشرفون على شئوننا مدى عشقي لها فكانوا يتركونها لي - عن طيب خاطر - على الدوام.

وأذكر أننى حضرت ذات مرة عرضا لأوبرا عايدة كانت تقوم به فرقة من رومانيا. ورغم أننى شاهدت عايدة مرات عديدة في الأوبرا المصرية القديمة قبل أن تحترق، وفى الأوبرا الجديدة إلا أن عايدة في تلك المرة كان لها طعم آخر... طعم بلادي وروح أهلها !!!!

•••••••

وللآن ما زلت أذكر تلك الفتاة الرومانية الجميلة، التى تعرفت بها فى ذلك الحفل.. كانت تدرس معنا فى المعهد، لكننى لم ألتق بها من قبل.. وقد رحبت بى بحفاوة حين علمت بأننى مصرى، وراحت تناقشنى فى الحضارة الفرعونية وتقاليدها ـ وهل ما زالت تلك التقاليد الممتدة فى واقع حياتنا المعاصرة ـ فأجبت بأن بعضها لا يزال يمثل جزءاً من تقاليد شعبنا خصوصاً فيما يخص مراسيم دفن الموتى. ولما قالت أن الفراعنة كانوا آلهة بالنسبة لشعوبهم ضحكت وقلت لها بطريقة عفوية أن كثيرا من حكام أوروبا الشرقية هم أيضاً آلهة بالنسبة لشعوبهم لا

يقدر أحد على معارضتهم ومنهم نيكولاى شاوشيسكو رئيس رومانيا.

وشحب وجه البنت عندئذ وتلفتت حولها برعب حقيقى وانصرفت ولم تكلمنى بعد ذلك أبداً ـ ولم أفهم ذلك السلوك ومبرراته إلا فيما بعد حين علمت بقسوة القبضة البوليسية التى يفرضها حكم ذلك الدكتاتور الشيوعى شاوشيسكو الذى أحال حياة الشعب الرومانى جحيماً بحجة الحفاظ على النظام الاشتراكى.

وقد تصادف أننى فى أثناء عودتى للقاهرة أن ركبت الطائرة المتجهة إلى بوخارست أولاً ـ لأستقل من هناك بطريقة الترانزيت الطائرة المتوجهة إلى القاهرة.

كان ذلك فى مساء يوم 24 ديسمبر قبل حلول عيد الميلاد بيوم واحد وما أن حطت طائرتنا فى أرض المطار حتى أحاط بنا الجنود المدججون بالسلاح من كل صوب. وقاموا بتفتيشنا تفتيشاً ذاتياً وبعثروا أمتعتنا على الأرض، وقادونا إلى صالة صغيرة، أمرونا بألا نغادرها. وظللنا محبوسين حتى ظهر اليوم التالى.. حين علمنا لأن الثورة الشعبية على حكم شاوشيسكو قد نجحت، وأن محاولة الدكتاتور الأخيرة للاستعانة بالجيش فى قمع الثورة، قد فشلت، حين انضم الجيش للثورة الشعبية وحاول الدكتاتور أن يهرب مع زوجته خارج البلاد فى طائرة هليكوبتر خاصة لكن الثوار قبضوا عليهما وأجروا

لهما محاكمة سريعة استغرقت ساعتين وحكموا عليهما بالإعدام رمياً بالرصاص فى ظهر يوم 25 ديسمبر 1989 وتم إعدامهما دون أن يغموا عينيهما أو يقيدوا أيديهما كما هو متعارف عليه.

وقد أذيعت عملية الإعدام على شاشات التليفزيون فى اليوم نفسه حتى يصدق الشعب أن ذلك الدكتاتور الرهيب على كتم على أنفاسهم طوال ربع قرن (1965 ـ 1989) قد ذهب إلى غير رجعة.

وقد شاهدت بنفسى على شاشة التليفزيون ـ فى المطار ـ عملية الإعدام الدراماتيكية ـ ولا أنكر سعادتى البالغة بذلك المشهد رغم دمويته ـ وتذكرت قول الشاعر العربى القديم "من يعش بالسيف ـ يمت بالسيف". وفى المساء صعدنا للطائرة المقلعة إلى القاهرة، والتى تصادف أنها كانت ممتلئة، بل مزدحمة، بالطلبة المصريين الذين يدرسون فى جامعات رومانيا والذين عادوا لقضاء أجازة نصف السنة مع ذويهم بالقاهرة ـ وانقضت ساعات العودة الثلاث فى طبل وزمر ورقص وغناء ـ على طريقة المصريين المعهودة فى الاحتفال بالعودة إلى الوطن.

•••••••

ذات صباح، في منتصف أكتوبر، هبط الثلج على برلين.. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أشاهد سقوطه بعيني. كنت أشاهده كثيرا في الأفلام السينمائية الأوربية والأمريكية.. وأدى الجليد

الذي يكسو الأرض والأشجار والأشياء لكنني لم أعاينه حقيقة وأحس به وألمسه بأصابعى إلا في تلك المرة.

وقتها...كنت في السوبر ماركت الصغير الخاص بالأغذية والمشروبات والمواد التموينية في بانكوه..صباح يوم السبت، حيث كانت المحال التجارية تفتح أبوابها لما بعد الظهيرة فقط وتغلق تماما بعد ذلك حتى صباح يوم الاثنين بداية أسبوع العمل لديهم.

وكنت أقف أمام عاملة الخزينة أدفع حساب مشتراواتى حين أبصرت خلال الزجاج حبات البرد الدقيقة التي تشبه الرزاز أو نتف القطن وهى تتساقط ببطء وهوادة وتغمر المادة الذين كانوا يمشون بلا مبالاة..ولم أرهم يهرعون تحت المظلات أو يحتمون في البنايات مثلما نفعل في بلادنا حين يهطل المطر.

وانتابني خوف غريب لا أدرى مصدره، من أننى سوف أخرج إلى الشارع الآن فيغمرني الجليد وأتجمد من البرد، فتسارعت دقات قلبي، ووقفت قرب باب الخروج من المتجر متلكئا في الخروج وعينى على السماء والشارع، لعل البرد يتوقف. ثم حزمت أمرى وخرجت وحرت أمشى وجلا والجليد يتساقط ويهبط خفيفا ويغطى كتفي وشعري، ثم يذوب سريعا.

وشعرت بنسمة لطيفة تلفح وجهي، ونفذت إلى أنفى رائحة

الثلج لأول مرة في حياتي وغمرني إحساس جديد غير مألوف. وفجأة سطعت الشمس ببطء واستحياء، فصفا الجو وراق وتحول البرد إلى صقيع ونقاط من المياه بللت هامات الأشجار.. والتمعت على بلاطات الشارع المصقولة.. وعادت الحياة إلى طبيعتها مرة أخرى.

قبل أن ننخرط في الدراسة تماما – في الأيام الأولى من شهر أكتوبر قمنا بزيارة عدة مدن ألمانية، أولها مدينة بوتسدام المتاخمة لبرلين العاصمة، والتي اكتسبت أهميتها التاريخية من كونها شهدت توقيع المنتصرين في الحرب العظمى الثانية على وثائق انتهاء الحرب وتقسيم ألمانيا إلى شطرين بين السوفيت والأمريكان.

ولكي نصل إلى هذه المدينة الصغيرة الهادئة قطعنا دورة طويلة جدا حول سور برلين المكهرب الذي يفصل بين برلين الشرقية وبرلين الغربية.

كان للمدينة طابع خاص يختلف عن المدن الأوربية الكبيرة... فبيوتها الصغيرة التي تشبه الفيلات تتميز بالأسقف القرميدية المصبوغة باللون الوردي وميادينها تمتلئ بالنوافذ الكلاسيكية والتماثيل الرخامية وكان الشارع التجاري الرئيسي فيها مخصصا للمارة والمشاة فقط ومحرم تماما على وسائل النقل الأخرى ماعدا الدراجات.

وقد زرنا البيت الريفي البسيط والجميل الذي كان ينزل فيه ستالين

وروزفلت وتشرشل وتجولنا في حجراته العديدة وشاهدنا حجرات المكتب التي كان يجلس إليها الحلفاء المنتصرين الذين قاموا خلال مدة إقامتهم بالبيت – الذي أصبح متحفا– بتقسيم وتوزيع العالم فيما بينهم.

والحقيقة أن مؤتمر بوتسدام كان آخر اجتماع عقده كل من بريطانيا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، خلال الحرب العالمية الثانية (1935 ـ 1945) فى الفترة من 17 يوليو حتى 2 أغسطس سنة 1945 لتقسيم ألمانيا.

كانت الاتفاقية السابقة قد قسمت ألمانيا إلى مناطق احتلال بريطانية وفرنسية وسوفيتية وأمريكية واتفق المؤتمرون فى بوتسدام على معاملة الأجزاء الألمانية على أنها بلد واحد فيما يتعلق بالنواحى الاقتصادية، وبذلك حصل الاتحاد السوفيتى على ثلث السفن الألمانية وبعض المعدات الصناعية تعويضاً عن أضرار الحرب، كما اتفق المؤتمرون على مقاضاة القادة الألمان بتهمة ارتكاب جرائم حرب، وبينما كان المؤتمرون فى بوتسدام تناهى إلى علم الرئيس الأمريكى ترومان، نجاح أول اختبار للقنبلة الذرية الأمر الذى أدى إلى صدور "إعلان بوتسدام" الذى هدد بتدمير اليابان حليف ألمانيا فى الحرب ما لم تتوقف عن حربها مع دول الحلفاء وأن تستسلم دون شروط.

والواقع أن اليابان استسلمت بالفعل دون قيد أو شرط، ورفعت

الراية البيضاء لكن الأمريكيين أصروا على ضرب مدينتى هيروشيما ونجازاكى بالقنابل الذرية ودمروها تماماً، وكان ذلك بهدف إرهاب العالم كله والإعلان عن أنفسهم، الدولة الوحيدة التى تملك تلك القوة التدميرية الفتاكة ليخضع الجميع لهم. لكن الاتحاد السوفيتى الذى قبل التحدى، استطاع أن يمتلك السلاح الذرى خلال أشهر قلائل ليصنع بذلك توازن الرعب مع الأمريكان.

وبعد بوتسدام قمنا بزيارة مدينة روستوك الساحلية على بحر البلطيق، وذكرتني رائحة هواءها بالإسكندرية التي قضيت فيها فترة كبيرة من مدة تجنيدي في السبعينات.

وتجولنا في ترسانة ميناء السفن البحرية في مينائها الشهير، والتقينا بأعضاء من اللجان النقابية العمالية، وركبنا سفينة أبحرت بنا في نزهة بحرية في بحر البلطيق المغلق الذي قيل لنا أنه يتجمد تماما في عز الشتاء، وأثناء تواجدنا بأحد المطاعم قرب شاطئ البحر دخلنا بطريق الخطأ إلى شاطئ كتبت على مدخله لافتة بالألمانية لم نستطع فهم محتواها، لنكتشف – بعد أن دخلنا – أن الشاطئ مخصص فقط للعراة رجالا ونساء وأطفالا، وقد ذهلنا للمنظر غير المألوف – منظر الأجساد العارية– بالنسبة إلينا وتنبهنا على صراخ المستحمين العراة الذين انزعجوا من رؤيتنا نتجول بينهم بملابسنا الكاملة فغادرنا المكان على

الفور والتخجل يملؤنا.

أما المدينة الأخيرة التي زرناها فكانت درسون في الشمال الشرقي وقد قمنا بزيارتها بعد بدء الدراسة بأسبوعين، وكل ما أذكره عن تلك المدينة القائمة هي برودتها القارصة، فقد نزلت من السيارة التي أقلتنا، وكانت مكيفة تكييفا دافئا، وقمت بالمشي قليلا وسط أحد الميادين الممتلئة بالعمائر الشاهقة والبنايات العالية.

ولاحظت أن السماء ملبدة بغيوم رمادية كثيفة، وأن الناس فيها يمضون مسرعين، كما في الأفلام الأمريكية، وبعد مُضى دقائق معدودة أحسست بأطرافى تكاد تتجمد من البرد فعدت مرة أخرى إلى السيارة المكيفة لأحتمى بدفئها.

-5-

فى معهد أرنست تليمان للدراسات الاشتراكية تعلمت الكثير..
وكان أهم ما تعلمته هو ضرورة الحفاظ على المنهج والتمسك به واللجوء إليه فى كل وقت وعدم فقدانه، فهو البوصلة والمرشد للوصول إلى جوهر الأشياء وقلب الحقائق فمهما كانت التعقيدات والأساليب المضللة التى تتبعها الإمبريالية ومفكريها فإن منهج "المادية الجدلية" ـ الديالكتيك ـ كفيل بكشف الزيف والخداع ـ لقد قال ماركس ذات مرة أن الإنسان هو المنهج ـ هو الأسلوب ـ وقال لينين "الشيوعى مرة ـ شيوعى إلى الأبد".

والواقع أن طريقة التعليم.ووسائله كانت هى الأكثر إدهاشاً فقد كان المحاضر يلقى محاضرته بالألمانية على كل الحضور من مختلف الأجناس واللغات، وكنا نضع سماعات دقيقة داخل أذاننا فنسمع الترجمة فوراً باللغة التي تناسبنا.

كان هناك مترجمون فوريون ينقلون إلينا الترجمة من خلال استديو للترجمة والإذاعة فى خلفية القاعة..كان صوت خيلجا مترجمتنا هو

المألوف لي بلغتها العربية الفصيحة الرصينة التي تشبه لغة الشوام.

وقد تعلمت هناك أسس الاقتصاد السياسي والفلسفة الماركسية التي كانت تتضمن دراسة فلسفة هيجل المثالية ونظريته عن الديالكتيك والمادية عند فيورباخ والفوضوية عند برودون والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد الانجليزى والخطوط العريضة لكتاب " رأس المال " لماركس..ودراسة نظرية فائض باستعاضة، ودراسة اصل العائلة والملكية عند انجلز.

وقد كانت دراسة نظرية وتحليلية ممتعة حقا...وكان أكثر مار وعنى في البداية هي مادية فيورباخ الذي قال بصراحة مفزعة انه لا وجود مطلقا لعالم الميتافيزيقا.

وكانت طريقة الدراسة الأكثر فائدة هي عقد " السونار" أو حلقة البحث، بين مجموعة الطلاب دوى اللغة الواحدة والقومّية الواحدة.

فكنا نعقد جلسة للمجموعة العربية، يتم فيها مناقشة ما درسناه في المحاضرة مع التطرف إلى كافة القضايا التي تحصى منطقتنا العربية وبلادنا وتاريخنا القديم والحديث وكافة القضايا الدولية المعاصرة.

وكان الموضوع الذى يفرض نفسه علينا فى كل نقاش تقريبا، هو موضوع الصراع العربى الاسرائيلي وكيف ان اوروبا حلت عقدة الذنب لديها تجاه اليهود ـ نتيجة اضطهاد النازية لهم وابادتهم فى الهولوكوست ـ باغتصاب اراضى فلسطين وتحويلها لدولة عنصرية، ومركز متقدم للامبريالية الامريكية التى تستخدمها ككلب حراسة

على منابع بترول الشرق الاوسط الذى تحتكره لنفسها ـ وكان النقاش يخلص الى ان الانظمة العربية المستبده هى اكبر سند لأسرائيل ربيبة الولايات المتحدة وان حكام تلك الدول يتوددون لأسرائيل لنيل رضا امريكا حتى يضمنوا بقائهم على كراسى السلطة.

والحل الذى كنا نخلص اليه ان بناء الديمقراطية فى مجتمع حديث ومتطور يأخذ بأسباب العلم هو الكفيل بنفى الانظمة الاستبدادية وحصار إسرائيل وعزلها والسعى الحثيث من ثم لبناء مقدمات التحول نحو الاشتراكية العلمية..ولن تحل القضية الفلسطينية سوا بأعلان الدولة الواحدة العلمانية والديمقراطية لليهود والفلسطينيين فلا معنى لحل الدولتين فى ظل الهيمنة الأمريكية والعنصرية الأسرائيلية والتخلف العربي.

وكنا نذهب إلى دار للعرض السينمائي بالمعهد مرة على الأقل أسبوعيا نشاهد أفلاما سينمائية روسية في الغالب تشرح تاريخ الثورة البلشفية ومقدمتها، وأذكر أننى رأيت فيلم " المدرعة بوتمكينى " لايزنشتاين لأول مرة هناك، كما شاهدت فيلم " الدون الهادي " عن رواية شولوخوف الشهيرة، والطلقة 41، وعامان مع بندقية ومدفع وأفلاما أخرى كثيرة، كانت أهميتها تكمن في كونها تعرض " رؤية " مختلفة للعالم وللتاريخ وللصراع الحضاري عن تلك التي تروجها السينما الأمريكية الرأسمالية التي تؤكد دائما على دور البطل الفرد.

وقد ترك فيلم الطلقة 41 للمخرج السوفييتي جريجورى تشوخراى أثرا بالغا فى نفسى حين رأيته لأول مرة ولم اكتف بتلك المشاهدة فحسب بل شهادته ثلاث مرات بعد ذلك وللوهلة الاولى قد نظن أن الفيلم يحكى الصراع بين الحب والواجب وبين مشاعر المرأة كأمرأة وبين التزامها الفكرى وانتمائها الطبقى والعقائدى ـ هذه رؤية مسطحة للأمور يمكن الخروج بها كأنطباع من المشاهدة الاولى للفيلم ـ لكن المشاهدة المتأملة والمتعمقة سترى الأمور أبعد من ذلك.

إنها قصة امرأه مناضلة، جميلة، قناصة فى الجيش الأحمر، أثناء الثورة البلشفية، يقع فى يدها ضابط من النبلاء البيض أسيرا، ويطلب منها تسليمه لمركز القيادة وفى طريق رحلتها باحد القوارب يتعرضان للغرق، وتنقذ أسيرها بأعجوبة لتجد نفسها معه على جزيرة نائية، ويمرض أسيرها الشاب الوسيم بالحمى وتقوم بتطبيبه وعلاجه ورعايته وتحنو عليه كأنها أمه، وكأنه ابنها وتتطور عاطفتها نحوه الى الحب الذى يمكن أن ينشأ بين رجل وامرأة خصوصا حين تطول إقامتهما على الجزيرة وينشب بينهما نقاش يكشف عن عمق الخلاق الأيديلوجي بينهما، لكن الحب يذيب الخلاف للدرجة التى تضحى فيها بأوراقها التى كتبت فيها قصائدها الثورية لتمنحها لحبيبها ليصنع منها لفائف سجائره البدائية.

وذات صباح بعد أن يكون بطلنا الضابط الأبيض قد شفى تماماً

وتمالك عافيته، ترى سفينة عسكرية من بعيد، فيظن صاحبنا أنهم رفاقه، فيجرى على الشاطئ يلوح لهم لينقذوه. . وتنفجر البطلة غضباً وتشعر بأنها قد خدعت فى هذا الرجل البرجوازى الأنانى ووثقت بعدو طبقى غادر، وتكون قد خانت المسئولية الوطنية التى ألقيت على عاتقها. وعندئذ تصوب بندقيتها نحوه وهو على مبعدة 300متر وقد اندفع نحو الشاطئ وخاض بقدميه الحافيتين فى مياه البحر، وتطلق طلقتها الـ 41 التى تبقت معها من ذخيرة ليقع الرجل صريعاً يتخبط فى دمائه.

وتجرى نحوه عندئذ كالمجنونة، خصوصاً بعد أن تكشف لها أن أصحاب المركب التى راحت ترسو على الشاطئ هم رفاقها من الجيش الأحمر، وتحتضنه وتحاول إنقاذه عبثا، لكنه يموت بين ذراعيها، وهى تناجيه باسم التدليل الذى تعودت عليه "يا عيناى الزرقاوان ـ لا تمت ـ أرجوك"

لم استطع السيطرة على نفسى كلما شاهدت هذا المشهد الأخير للحبيب وهو يموت بين يدى حبيبته التى تعين عليها أن تقتله فى لحظة فارقة رغم كل الحب الذى كانت تكنه له.

ومن الأفلام التى علقت بذهنى أيضاً وأثرت فى تأثيراً عظيماً، فيلم كل شيء هادئ فى الميدان الغربى وهو معد عن رواية شهيرة للكاتب الألمانى أريك ماريازيمارك ويحكى فيها قصة مجموعة من الشباب

اليافعين، خريجى المدارس الثانوية، الذين يقادون لخوض غمار الحرب الضروس ـ كما تقاد الخراف إلى المذبح، وهم لا يعرفون السبب الحقيقى لهذه الحرب سوى ما يبثه نظام هتلر فى عقولهم من أنها من أجل مجد ألمانيا. .براءة هؤلاء الصبيان الذين لم يخوضوا غمار الحياة بعد.ولم يعرفوا الحب ولم يجربوه، وما زالت أحلامهم عن المستقبل ضبابية غائمة.فى ظل حكم النازيين العنصرى الذى يدفعهم إلى إبادة الشعوب الأخرى. .براءة هؤلاء هى ما تجعل القلب ينزف وهو يراهم يذبحون أو يتحولون بعد معاناة إلى وحوش تقتل من أجل البقاء على قيد الحياة.

يصور الفيلم ـ من خلال خطابات الشاب بطل الفيل إلى أهله فى المرحلة الأخيرة من الحرب ـ حياة الجنود الصعبة فى الخنادق، والموت المجانى الذى يحصد أرواح شباب فى عمر الزهور ـ من جراء القذائف المنهمرة عليهم ـ من جيوش الحلفاء ـ صباحاً ومساء، والتى كانت تجعل البعض منهم يبكى كالأطفال، والبعض الآخر ينتحر هرباً من المعاناة وتوقع الموت فى كل لحظة.

بطل الفيلم يكتب فى نهاية الفيلم فى آخر خطاب له إلى أهله، عقب انتهاء الحرب عن الهدوء الذى بدأ يسود الجبهة فى الميدان الغربى، وهو اليوم الذى يصاب فيه بطلقة تنتهى حياته القصيرة.

———••••••———

حين توثقت علاقتى بهليجا المترجمة ـ بعد أن التحقت بفصول تعليم اللغة الألمانية ـ وعلمت أنها تشارك بالتدريس فيها للمجموعة العربية، قالت لى ذات مرة ونحن فى طريق عودتنا من حفل للموسيقى الكلاسيك التى اكتشفت أنها مثلى تعشقها وتواظب على حضورها:

ـ ما الذى أتى بك إلى هنا؟!

قلت مندهشاً ومستغرباً سؤالها:

ـ جئت كما تعلمين بترشيح من حزبى، وبدعوى من حزبكم؟

ـ للدراسة واكتساب الخبرة والمعرفة. الخبرة والمعرفة والمعلومات متوافرة ومتاحة لديكم، ربما أكثر منا ـ قل الحقيقة ـ لماذا جئت؟

ـ حسناً لنقل أننى جئت للتعرف إلى عالمكم ـ لأرى كيف تعيشون فى هذا الجزء من العالم ـ لأرى الاشتراكية التى تطبقونها ـ وقد تحققت على أرض الواقع، وليس مجرد أفكار ونظريات فى الكتب.

ـ يا عزيزى ـ وهذا الكلام سر بينى وبينك ـ لا ينبغى أن تكرره على مسامع أحد ـ الاشتراكية هنا تتهاوى وتنهار منذ فترة ليست بالقصيرة ـ بسبب البيروقراطية والجمود والفساد والاستبداد ـ لقد سرقوا منا أحلامنا بشعارات براقة، سرقوا سنوات عمرنا، وسجنونا داخل أسوار بلادنا ـ وأنا شخصياً خسرت حياتى، ولن أستطيع بعد أن تجاوزت الأربعين ـ البدء من جديد.

وروت لى كيف أنها انفصلت منذ عشر سنوات عن زوجها

المهندس فى علوم البحار الذى هرب إلى برلين الغربية - عن طريق تشيكوسلوفاكيا - وأخذ ابنها الوحيد معه وأنها رفضت الهروب معه آنذاك واعتبرته خيانة وانهزامية، لقناعتها بالحياة فى الدولة الاشتراكية التى تنتمى إلى حزبها وتدافع عن أفكاره وسياساته.

كنا وقتها نقف فى محطة "متحف ماركس" ننتظر وصول مترو الأنفاق، فرأيتها لأول مرة فى حياتى تبكى فى صمت رحت أربت على ظهرها بحنو وأمسح دموعها بمنديلى فسكتت، وهدأت تدريجياً، وجاء المترو ووقف على الرصيف فنهضنا مسرعين وركبنا. ونظرت فى عينها عاتباً، فابتسمت ابتسامتها العذبة، وفتحت حقيبتها وأخرجت لى صورة فوتوغرافية ملونة لطفل فى العاشرة، جميل المحيا شديد الشبه بهليجا قلت ضاحكاً: ابنك؟!

أومأت برأسها:

- ولد جميل.. متى رأيته آخر مرة؟!

- من سنتين.

- ولماذا كل هذه المدة الطويلة.؟

- أتمنى أن أراه كل شهر، لكن هناك صعوبة بالغة فى الحصول على التصاريح من الجهات المختصة هنا ومن القنصلية الألمانية الغربية.

- هل ستواجهنى أنا أيضاً هذه الصعوبات إذا حاولت أن أقوم بزيارة شقيقتى فى ألمانيا الغربية؟!

ـ لا ـ أنت غريب ـ لن يمانعوا هنا فى إعطائك التصريح وأن كانوا سينظرون إليك بعين الريبة حين يعلمون بأن لك أقارب على الجانب الآخر..، وأسمع نصيحتى، لا تفكر الآن فى هذه الزيارة..أنتظر فى أعياد الكريسماس حتى يكون هناك مبرر للزيارة..المشكلة التى تواجهك هى فى الحصول على التصريح من قنصلية ألمانية الغربية فى برلين.فهم يدققون فى أوراقك ويسألونك، ويستجوبونك، ويجرون عنك التحريات لمعرفة أسباب تواجدك فى ألمانيا الشرقية، وبالطبع لن تقول لهم أنك هنا ضيفنا على الحزب الاشتراكى الألمانى ولجنته المركزية ـ أو أنك هنا لدراسة الماركسية اللينينية، وإلا فالمؤكد أنك ستعتقل حين تطأ قدمك أرض المطار فى القاهرة.

ضحكت وقد اعترانى القلق ـ وقلت لنفسى ـ مطمئناً ـ من هنا حتى حلول أعياد الميلاد ستتضح الأمور...وسوف أجد حلاً.

••••••

الوحدة ـ ها هنا فى تلك البلاد الغربية ـ أسلمتنى للكآبة..والكآبة اسلمتنى للأرق، والقلق ـ وكانت الخمر للأسف هى ملجئى السهل للهروب من وحدتى وسهادى ـ فالبديل كان أن أتعاطى مضادات الاكتئاب التى كنت أعرفها منذ زمن "الفيلوزاك والتربتزول"..وهى غير متوفرة معى هنا، ويتعين على لكى أصرفها من الأجزاخانة أن يكون معى تذكرة طبية من طبيب نفسانى..ولذا يتعين على أن

أبلغ إدارة المعهد باحتياجى للعرض على الطبيب النفسى، وعندئذ قد ينظرون إلى نظرتهم إلى رجل مريض لا يصلح لتحمل عبء العمل السياسى.

كانت الخمر أذن هى الحل السهل..وقد ساعدنى على ذلك أنها كانت متاحة فى مناخ وبيئة تعتبرها من لزوميات الحياة فى تلك البلاد شديدة البرودة.فعلى موائد الطعام، فى جميع الوجبات، تجد زجاجات البيرة متوفرة بدلاً من الماء بأسعار زهيدة، وزجاجات النبيذ الأحمر أيضاً لمن يرغب فى بعض الرفاهية التى لا تكلف كثيراً.

وقد بدات بتناول البيرة من ماركة "بلسنر" الشعبية..وكنت أملأ الثلاجة بدستة من الزجاجات لا تبقى معى سوى يومين، أغير الفوارغ بعدها من المخزن القريب بما يساوى ستة ماركات ألمانية شرقية للدستة..كنت أتناول فى المساء ثلاث أو أربع زجاجات تدير رأسى، فأستلقى فى فراشى وأنام حتى الصباح دون أرق.

وبعد وقت قصير لم تعد البيرة تجدى معى، فجربت النبيذ الأحمر ثم الأبيض ثم البراندى والكونياك فالويسكى، وأنتهيت إلى الفودكا الروسية وهى الأشد والأعلى مرتبة فى القوة والتأثير.

ولم يكن سقوطى فى هوة "تعاطى" المسكرات التى تغيب الوعى لتمكينى من النوم حلاً سهلاً، فقد عذبت ضميرى لأننى ـ مثل بعض اليساريين الذين يعانون من الازدواجية فى الفكر والمشاعر ـ كنت أشعر

بأننى أرتكب ذنباً وأقترف حراماً ومنكراً، واننى أدمر نفسى وأتحول إلى سكير، يصعب علاجه، لكننى كنت أقول لنفسى أننى حين تنتهى البعثة وأعود إلى بلادى وأهلى، وأعيش حياتى العادية وسط من أحب فسوف أسترد نفسى وحياتى السابقة وأقلع عن الشرب وعن التدخين وعن جميع الموبقات، فعلى الرغم من أننى كنت ماركسياً أؤمن بالفلسفة المادية كمنهج فى التفكير، إلا أن فى أعماقى كانت يربض شخص مؤمن بأن الله موجود كقانون أعلى يحكم الوجود، ولعل ذلك راجع إلى بيئتى التى تربيت فيها..فأنا من مواليد حى الحسين رضى الله عنه..ولدت فى خان الخليلى، وترددت على الكتاب فى الأزهر الشريف وأنا طفل فى الرابعة من عمرى، وحفظت أجزاء عديدة من القرآن الكريم..لا تزال راسخة فى عقلى ووجدانى..حتى دخلت مدرسة المغربلين بعد أن انتقلنا من مسكننا القديم الآيل للسقوط إلى حى درب سعادة فى باب الخلق.

وقد تلقفنى خالى "الشيخ محمد" وهو مدرس فى إحدى المدارس الأزهرية وتولى تعليمى، وصبحنى إلى المساجد للصلاة، بالذات مساجد الأولياء وآل البيت كمسجد الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة وسيدى زين العابدين، وغيرهم..وحين بلغت العاشرة صحبنى خالى إلى "الحضرة الصوفية" وإلى "رفاق الطريق" وحضرت معه مراراً حلقات الذكر، وجلست بجوار "الشيخ الكبير" استمع لكلامه

ومناجاته لمريديه وتحول الشيخ بالنسبة لى إلى "أب" حقيقى، رحت أشكو له همومى بعد أن كبرت، ومتاعبى الروحية، وكان يواسينى ويشد من أزرى ويقرأ لى فى كتاب "الأوراد" الذى منحى لى فيما بعد، والذى لا زلت أحتفظ به للآن، واشم فيه عبق الشيخ. كان هذا الشيخ هو روح خالصة، قادرة على النفاذ إلى أعماقى بنظرته ومن دون أن أتكلم. وحين مات وأنا فى السابعة عشرة من عمرى أسودت الدنيا فى عينى وصرت وحيداً، ضائعاً خصوصاً بعد وفاة خالة متأثرا بداء عضال.. وانقطعت عن رفقة الطريق، وحين دخلت الجامعة تلقفتنى الماركسية فوجدت فيها "طريق" آخر لا يقل وضوحاً عن طريق الصوفية، وإن كان أكثر صرامة وعنفاً وثورية.

هل يمكن للمرء أن يكون ماركسياً، وأن يكون صوفياً فى الوقت نفسه؟ هل يستوعب العقل البشرى هذا التناقض، بين الإيمان بالمادية كمنهج فى رؤية العالم وتغييره والصوفية كمنهج لخلاص الروح زسعى للامتزاج بالمطلق، والقدرة على الاستشفاف والنفاذ إلى جوهر الأشياء.

حيرنى هذا التناقض الذى كنت أعيشه داخل نفسى، لكننى كنت ألتجئ إلى الشعر والموسيقى لحل هذا التناقض، كنت أقرأ للإمام الشافعى، واستمع إلى صلاح عبد الصبور فى "مأساة الحلاج" وأردد أشعار البياتى عن "محى الدين بن عربى" حين يقول " كلمنى

السيد والعاشق والمملوك والبرق والسحابة والقطب والمريد وصاحب الجلالة..أهدانى بعد أن كاشفنى غزالة، لكننى أطلقتها فى الريح، تعدو فى مدائن الغباء"

ها هو الشاعر اليساوى التقدمى، الذى أعشق شعره، يردد مفردات الصوفيين التى أحفظها عن ظهر قلب..لقد كان عشقى للشعر والموسيقى هو جزء من إيمانى بالصوفية، أو يمكن القول أن هذا العشق كان البديل عن التخلى عن الصوفية لقد قال سبيليوس الموسيقار الفنلندى ذات مرة كلمة لا تزال عالقة فى ذهنى قال أن "الموسيقى هى وسيلتنا إلى السماء"، ولم أفهم هذه العبارة حتى فهمها إلا حين بدات أتجول فى الأماكن التى كان يمشى فيها بتهوفن وموتسارت. لقد مسست قلب هؤلاء حين عشت فى الأجواء التى عاشوا فيها.. فهمت موسيقاهم عندئذ، وفهمت تجليات أرواحهم، وتبددت، عندئذ وحدتى وكآبتى التى كنت أحاول أن أتغلب عليها عن طريق تعاطى الكحول.

———•••••••———

مع بداية شهر أكتوبر بدأ الاحتفال بعيد تأسيس وإعلان جمهورية ألمانيا الديمقراطية الذي تصادف انه كان العيد الأربعين في ذلك العام. وصحبتنا هيلجا مع احد المسئولين الحزبيين إلى مطار برلين للاحتفال باستقبال الزعيم السوفييتي الأسطورة آنذاك ميخائيل جورباتشوف

الذي جاء خصيصا ليحضر المناسبة...جورباتشوف زعيم " البروسترويكا" الذى كانت تحيط به هالات من الجاذبية التي صنعتها حوله أجهزة الإعلام الغربية والشرقية، وقد رأيته رأى العين يجلس بجوار ايريش هونيكير رئيس ألمانيا ولوحت له بيدي مع الزملاء، فلوح لنا من خلال سيارته المكشوفة وابتسامته العريضة التي تملأ وجهه وتلتمع على شفتيه.

وبدأت سلسلة من ليالي الاحتفالات في ميدان ألكسندر تصدرها هونيكر زعيم ألمانيا القوى الذي كانت تحيط به الشائعات عن استغلال النفوذ وتهريب رؤوس الأموال للخارج، هو ومجموعة من رجال حزبه.

لكن الحقيقة أن كثير من التهم التى وجهت أو تم ترويجها ضد هوتيكر لم يثبت صحة أغلبها، لكن آلة الدعاية الغربية تكلفت بحصاره والضغط عليه حتى استقال من منصبه كرئيس للدولة فى 18 أكتوبر 1989.

وبعد انهيار سور برلين فى نوفمبر من عام 1989، وإعلان الوحدة بين شطرى ألمانيا فى 3 أكتوبر عام 1990، لجأ هوتيكر إلى الاتحاد السوفيتى وأقام فترة فى موسكو يعالج من الإصابة بالسرطان. وحاولت سلطات ألمانيا الموحدة ملاحقته والقبض عليه لمحاكمته لكنه لجأ إلى شيلى وأقام فيها كلاجئ سياسى حتى مات عام 1994.

وقد حضر أبو عمار - ياسر عرفات - تلك الاحتفالات الصاخبة التي لاحظت بوضوح ان العديد من الألمان كانوا يرقبونها بسخط مكتوم وسخرية واستنكار.

وتبين لي تدريجيا - من خلال معاشرتي لهم - ان هناك حالة من الكآبة تخيم على وجوه الألمان الشرقيين وأنهم - وغالبيتهم - يكتمون داخلهم شعور بعدم الرضا ناجما عن إحساسهم بالدونية تجاه شعوب أوروبا الغربية المجاورة لهم وتجاه إخوانهم الألمان على الجانبي الأخر في برلين الغربية التي يفصل بينها وبينهم سور ضخم شائك، طويل وكهرب ومدعم بحراسة مشددة.

سور بدا لي أنا الغريب عن هذه البلاد - بعد فترة قصيرة من اقامتي فيها - انه سور مضحك عبثي ولا معنى له، لأن ألمانيا الغربية كانت قد قامت بغزو عقول أبناء ألمانيا الشرقية منذ وقت ليس بالقصير عن طريق التليفزيون الذي يستقبل بسهولة برامج التليفزيون الغربي الذي كان كل المانى شرقي يشاهدها ويستمتع بها وبما تقدمه من برامج جذابة مثيرة، وإعلانات مبهمة عن سلع متنوعة تفتح أفاق الحلم الاستهلاكي الترفي أمام هؤلاء المحرومين الذين كانوا يقفون طوابير طويلة في السوبر ماركت متعددة الطوابق في الكندربلاتر للحصول على بنطلونات جينز وقمصان قطنية ملونة مدعمة قادمة من الصين الشعبية.

كان الناس قد فقدوا تدريجيا مصداقية اى شئ يذيعه تليفزيون

بلادهم، وكانوا يستمعون بدأب إلى نشرة الأخبار التي يذيعها تليفزيون برلين الغربية ولم يكونوا يصدقون الأشياء التي يذيعها تليفزيونهم حتى ولو كانت عن حادثة محلية وقعت في بلادهم إلا لو أكدها تليفزيون الغرب !

وكنت أشاهد التليفزيون أنا أيضا في أوقات فراغي -بعد أن أتقنت الألمانية إلى حد ما - فلاحظت كم السموم المبثوثة في تلك البرامج والأفلام والمسلسلات الحافلة بمشاهد الجنس والإعلانات عن الصابون الفاخر والشيكولاتة والبيرة والويسكى والجينز والملابس المصنوعة في بلاد الموضة والحياة الرغدة على الجانب الآخر.

وبدا لي عندئذ، السوبر المكهرب، المقام كحزام حديدي حول البلاد وكأنه دليل حماقة كبرى لأن هذا السور لم يحصن الألمان الشرقيين من غزو عقولهم وهدم أرواحهم.

-6-

وظل المصطفى... مختار الحبيب... الذى كان فجراً لذاته
ينتظر سفينته فى مدينة أورشليم
وعندما دخل المدينة ـ استقبله الشعب
كانوا يهتفون: لا تفارقنا.. لا تفارقنا..
فالمحبة لا تعرف عمقها.. إلا ساعة الفراق

كانت تلك آخر كلمات فيروز التى تناهت إلى من شريط أغانيها مساء يوم الجمعة قبل أن أنام فى فراشى وحيدا.. اعتصر الحزن قلبى وأنا أتمعن فى الكلمات الأخيرة التى يبدو أنها كانت ل"جبران".

حقا لا نستطيع أن نعرف عمق محبتنا لأحبائنا إلا حين نفارقهم ويفارقونا ويصبح من المتعذر علينا لقاؤهم.. وجافانى النوم فى تلك الليلة مدة طويلة وأنا أسترجع فى مخيلتى صورة نادية زوجتى ووجه ولاء ابنتى.. وحين غبت عن الوجود حلمت مرة أخرى بنفس الحلم المروع الذى رأيت فيه زوجتى تموت من أثر النزيف الحاد فى ذلك المستشفى الكئيب.

واستيقظت فزعاً - وقلت لنفسى أننى ينبغى أن أكلمهم هاتفياً غداً مهما كان الثمن. .لقد عودتنى نادية ألا تكون ولادتها سهلة أبداً ولعل هذا هو ما يخيفنى ويجعلنى أتوجس شراً من ولادتها المقبلة.

وفى المرة الأولى - حين ولدت ولاء كنت بجوارها - لم أتركها لحظة منذ أن بدأت نذر الولادة متمثلة فى نزول تلك المياه الساخنة من قلب الرحم. .قالت "الداية" التى أحضرتها والدة نادية إلى حجرة السطوح - حين أصرت نادية أن تلد فى بيت أمها "القرن طش" فضحكت من التعبير الشعبى فأفهمتنى حماتى أن ذلك معناه أن الولادة اقترب موعدها.

نظرت إلى نادية التى مددتها الداية على الأرض منذ أكثر من ثلاث ساعات فراعنى وجهها المحتقن الذى تفصد عرقاً - وعيناها التى جحظتا - وكانت المرأة المولدة تربض عند أسفل ساقيها المفتوحين وقد غطتها بملاءة بيضاء توسخت من طول استخدامها.

كبوت على ركبتى جنب رأسها الأشعث ومسحت على وجهه بمنديلى وتناولت كفها النحيلة بين كفى ونظرت إليها مشجعاً فتطلعت إلى بعينين دامعتين ملؤهما توسل أخرس ولم تنطق.

وجاءتها الطلقة أخيراً، عنيفة مكتسحة جعلت ظهرها يرتفع عن الأرض فى انتفاضة سريعة مفاجئة وجعلتها رجة الألم تعض يدى منفعلة دون أن تدرى. .قالت المرأة التى بدأ عليها الأعياء هى الأخرى:

- خلاص يا بنتى هانت - الراس قربت تخرج - شدى حيلك؟
- مش قادرة - تعبت - تعبت

وطلبت المرأة قبضة من السكر حشت بها فم الراقدة الذى علاه الزبد، وأغمضت عينيها فى شبه سبات، فقفزت المرأة كالفهد وصفعتها بقسوة ورجتنى أن أخرج وأشترى لها بعض العطارة "وان شاء الله ربنا هيفرجها"

خرجت وأنا أعض على شفتى، والتقيت حماى "عم زغلول" عند مدخل البيت فقرأ الحال فى ملامح وجهى ولم يسألنى عن شىء - وأخذنى من ذراعى واتجهنا إلى المستوصف القريب..قابلتنا امرأة خمسينية بدينة لها وجه بشوش مطمئن قالت لى وهى تضع يدها البضة على كتفى وتحاول أن تهدأنى:

- خير يا بنى؟

رويت لها الموقف بإيجاز - قالت:

- معاكم عربية ولا تاكسى أصل أنا ما بقدرش أمشى كتير
- العنوان قريب يا حاجة خطوتين
- طيب - استنى لما أجيب العدة، وأروح معاكم حالاً.

وأحضرت حقيبة جلدية قديمة ناولتها لى ثم مضت معنا وهى تحاول طول الطريق أن تسرى عنى - وعند باب المنزل أسلمتها ليد حماتى ومضيت أنا وحماى نجلس فى المقهى القريب ريثما تنتهى الأزمة.

ولم تمض ساعة واحدة حتى انتابنى القلق وتمكنت منى الهواجس فتركت حماى وهرعت إلى المنزل وقد تقطعت أنفاسى، وعند عنبة البيت قابلتنى شقيقة نادية الكبرى ـ سألتها بلهفة:

ـ خير

قالت وهى تبتسم فى غموض مثير:

ـ الحمد لله ـ قامت بالسلامة.

صعدت الدرجات مثنى فثلاث والعرق يسيل من جبهتى ـ وصلت إلى السطوح ودخلت الحجرة الوحيدة التى عمتها الفوضى ـ ألقيت زوجتى مستلقية على الفراش مسبلة العينين فى إعياء وقد ازرق وجهها بينما كانت "الحكيمة" تلف المولود فى لفائف بيضاء قالت:

ـ مبروك عليك ـ جالك بنت ـ تتربى فى عزك.

ملت على نادية وقبلتها فى جبهتها المنداة بالعرق فى إشفاق وقلت:

ـ حمد الله على السلامة

فضمتنى إليها بوهن وهمست:

ـ الله يسلمك.

فى صباح يوم السبت خرجت إلى الشارع أتمشى قليلاً، محاولاً تبديد وحدتى، تطلعت إلى صفحة السماء، فأبصرت بصيصاً ضئيلاً من أشعة الشمس يلح على استحياء وسط كتل هائلة من سحب رمادية، وتراءى لى أن فى الجو بوادر دفء مفاجئ.

توجهت صوب حديقة الحى لأتريض قليلاً، قبل أن أذهب إلى الحى التجازى وفى تلك اللحظة هبت ريح ثلجية مباغتة فشعرت بالقلق.

كانت الشوارع ساكنة، خالية تقريباً من المارة، فاليوم هو يوم عطلة، وكانت أوراق الأشجار المصفرة تغطى الأرصفة المبلولة بماء المطر الذى هطل - لابد - أثناء الليل.

دخلت إلى حديقة الحى، كانت شبه خالية، لم يكن هناك سوى رجل عجوز يجلس قرب النافورة المغلقة التى علاها الصدأ، وسيدة أخرى عجوز تنزه كلبها الضئيل وقريباً من المصرف المائى الضحل، بدا طفل صغير وحيد كان يطل من فوق الجسر الخشبى القصير على بعض البطات البرية، تسبحن منفردات، ملقياً إليهن ببعض فتات الخبز الأبيض الذى تعطيه له أمه الجالسة قريباً منه، تراقبه بعين الحذر.

جلست على أحد المقاعد الحجرية، أراقب الطفل الصغير، وهو يلهو..وفكرت فى ابنتى ولاء، وقلت لنفسى، إنها لابد أن تكون الآن فى المدرسة..حاولت أن أسترجع فى ذهنى صورة وجهها آخر مرة رأيتها فيها، ولكن لم أفلح.

أحسست باكتئاب مفاجئ يغمرنى، وفكرت فى النهوض والعودة إلى البيت.وفى تلك اللحظة شعرت بيد رقيقة تحط على كتفى من الخلف، فتطلعت مندهشا لأبصر هيلجا وقد ارتدت ملابس رياضية

جميلة "ترينج سوت" وحذاء أنيق من المطاط "كوتشى"..وربطت شعرها من الخلف بشريط حريرى أبيض، وارتدت قبعة رياضية "كاب"..ضحكت وأنا أتأملها معجباً فقالت:

- بتعمل إيه هنا؟

- زى ما انتى شايفة؟

- قوم - تعالى معايا - أنا هاعزمك على الشاى والجاتوه؟

- أين؟

- فى الكافتيريا القريبة، هنا..فى آخر الحديقة.

- لم أرها من قبل.

- لأنك لم تتجول فى كل أنحاء الحديقة.

نهضت معها، وأخذتنى من يدى، ودرنا حول الحديقة، نصف دورة وعبرنا قنطرة مائية، وفجأة أبصرت الكافتيريا المقامة فى قلب الحديقة..كانت هناك مناضد خشبية مستدير مدهونة باللون الأبيض تحيط بها مقاعد من الخيرزان بنفس اللون، ولم تكن الكافتيريا مزدحمة بالرواد فالجالسون بها كانوا يعدون على الأصابع. ولفت نظرى أن هناك فرقة كلاسيكية من خمسة أو ستة عازفين، وكانوا يعزفون مقطوعات موسيقية قصيرة، وحين جلست أنا وهليجا نحتسى النسكافيه ونلتهم قطع الجاتوه التى أحضرتها مضيفتى، حيث لم يكن يوجد بالكافتيريا جرسوناً للخدمة، فهنا المتبع هو نظام "أخدم نفسك". تناهى إلى سمعى

أنغام فالس الدانوب الأزرق شتراوس، وتلتها مقطوعة موتسارت الشهيرة "اين كلاين نخت موزيك" ـ معزوفة ليلية حالمة ـ وأحسست براحة نفسية تتسلل إلى نفسى..ولما فاتحت هليجا فى رغبتى فى مهاتفة أسرتى، قالت أن ذلك سوف يكلفنى مبالغ كبيرة تصل إلى مائتى مارك شرقى، ولم أكن أملك وقتها ذلك المبلغ فقلت لنفسى أننى سأنتظر حتى يصرفوا لنا المرتب الشهرى وقدره 800 مارك، وعندئذ أستطيع إجراء المكالمة، ومن ناحية أخرى، فأنا لم أكن أملك تليفوناً فى منزلى المتواضع، وينبغى على أن أحدثهم من منزل جيراننا فى السكن فى وقت ملائم، وكنت قد أرسلت إليهم بضع خطابات وطمئنتهم على أحوالى. وأكدت لهم أننى سأتصل بهم قريباً. كانت شقيقتى الصغرى ناهد ـ المقيمة فى فرانكفورت ـ هى الوحيدة التى أستطيع مخاطبتها عبر الهواتف العمومية المنتشرة فى الشوارع والميادين، حيث إنها كانت ضمن الأراضى الألمانية، حتى وإن كانت فى الغرب، وأوصيتها أن تتصل بأسرتى وتطمئنهم على، فأرسلت لى طرداً بعد أسبوع يحمل ملابس شتوية فاخرة وملابس داخلية غالية الثمن، وكوفية من الصوف الفاخر ومائتى مارك ألمانى غربى، استطعت تبديلها من السوق السوداء فى ميدان ألكسندر بماركات شرقية بلغت حوالى الألفى مارك، واشتريت بأغلبها ملابس لنادية وولاء.

قرب الظهيرة، غادرنا الكافتيريا والحديقة، أنا وهليجا، كنت

حائراً لا أدرى إلى أين أذهب، قلت لهليجا أننى سوف أذهب إلى ميدان ألكسندر لأتسكع هناك، وأتناول غدائى فى أحد المطاعم، ثم أجلس فى أحد البارات وأشرب بعض كئوس الفودكا الروسيّة، وحين يحل المساء سأعود للمسكن لأغير ملابسى استعدادا لحضور الحفل الموسيقى المقام فى دار الأوبرا.

قالت لى أنها تشعر بنفس حالة الفراغ التى أشعر بها، وأنها لا تود أن تفارقنى وعرضت على أن أصحبها إلى منزلها القريب، فى حى "شون هاوزر آلة" لنتناول الغداء معاً ونشرب كئوس الفودكا معاً، ويمكننا أن نعود إلى مسكنى، فأغير ملابسى ونذهب معاً للحفل الموسيقى.

فكرت قليلاً، ولم أر مبرراً للرفض، فصحبتها إلى منزلها الذى كان يبعد مسافة ربع ساعة مشياً على الأقدام..وكانت تلك المرة الأولى التى تدعوننى فيها هليجا إلى منزلها رغم الصداقة التى نشأت بيننا.. لكننى أعرف أن الألمان لا يمنحن صداقتهم إلا بعد طول معرفة واختبار، وليسوا مثل المصريين الذين تلتقى الواحد منهم فى عربة المترو أو فى الترام فيحكى لك أدق أسرار حياته.

صعدنا معاً إلى شقتها فى تلك العمارة السكنية المكونة من ثلاثة طوابق..ولها شرفات دائرية فسيحة تحيط بكل طابق، مسيجة بسياج معدنى ملون..وكانت بعض الرفات مزينة بنباتات وأزهار بهيجة المنظر.

كانت شقة هليجا المكونة من حجرتين واسعتين، واحدة للنوم، وأخرى للمعيشة وصالة وحمام، تتميز بذوق رفيع، دعتنى للدخول وأمسكت بكفى وجذبتنى لما شعرت بخجلى، وأغلقت الباب ورائى، وفتحت الباب الزجاجى المطل على الشرفة ودعتنى للدخول، فدخلت وجلست قرب منضدة مستديرة، وأحضرت لى بعض زجاجات البيرة الألمانى، وقالت لى ما معناه أن أخذ راحتى حتى تأخذ حماماً وتغير ملابسها.

جلست وحدى فى الشرفة أطل على الشوارع الخالية فى الأسفل وكان المترو ذو اللون البرتقالى يبدو من آن لآخر رائحاً غادياً، يشق طريقه فى وسط مساحات الخضرة المترامية.

رحت أحتسى زجاجات البيرة الواحدة تلو الأخرى، فأتيت على الزجاجات الثلاث التى كانت أمامى، وشعرت بدوار خفيف، ودفء يسرى ببطء فى أطرافى ويخدرنى، وامتلأت مثانتى وتضخمت، وشعرت برغبة مؤلمة فى التبول لكننى تماسكت حتى تأتى هليجا فاستأذنها فى دخول الحمام.

وأطلت هليجا بعد بضع دقائق.. كانت ترتدى بيجاما حريرية ملونة من النوع الغالى وفوقها رداء يشبه الكيمونو اليابانى، وتربط شعرها الذهبى بفوطة زرقاء تبرز جمال بشرتها، اعتذرت لى عن تأخرها، فاستأذنتها فى دخول الحمام، فقادتنى إليه وتركتنى.

تبولت، وشعرت بالراحة بعدها، وغسلت يدى فى حوض الغسيل وتطلعت فى المرآة إلى وجهى الذى أصبح قرمزى اللون، وإلى عينيى اللتين أحمرتا، وأحسست بالخجل من نفسى لأننى تركت لها العنان فاقتربت من حالة السكر. ولما خرجت وجدت هيلجا قد أعدت المائدة، ورصت صحون الغداء على السفرة بالصالة، ووضعت زجاجتين من النبيذ الأبيض الفاخر.

كان الغداء بسيطا عبارة عن قطع من الإسكلوب بانيه والبطاطس البوريه..وحساء الخضروات بمكعبات اللحم، وسلطة الطماطم.. جلست بجوارها على مائدة الطعام..ورحت أتناول بعض شرائح الطماطم بلا شهية، وصبت لى مضيفتى من زجاجة النبيذ فى كوبى الزجاجى فجرعتها دفعة واحدة، وملأت كوبى مرة أخرى وشربتها لكن ببطء..وأحسست بعدها بالأرض تميد من تحتى، وحاولت أن أنهض فلم أستطع - راحت هيلجا تربت على كتفى متفهمة مواسية. وأشعلت لى سيجارة، فأخذتها منها ورحت أجذب أنفاس دخانها بتلذذ.

ونهضت عن المائدة مستأذناً هيلجا، وجلست وحدى فى حجرة المعيشة، ولمحت جهاز الأسطوانات فوق المكتبة الصغيرة الملاصقة لجهاز التليفزيون..وكانت هناك بضع أسطوانات متراصة على مائدة خشبية مربعة، رحت أقلب فيها، فوجدت أسطوانة لكونشرتو البيانو

من مقام سى بيمول الصغير لبيتر تشايكوفسكى..وكان العازف للبيانو هو رمزى يس، فرحت جداً لعثورى عليها ووضعتها على البيلو اب ورحت أستمع وأنا مستلق على الكنبة الإستوديو الملاصقة للحائط، ولمحت هيلجا بعد قليل تقترب منى وتتحسس جبهتى بأناملها الرقيقة، ثم تقبلنى فى خدى كأنها تقبل طفلاً.

وتوارت بعد قليل فى الحمام، بينما كانت نغمات البيانو الحزينة تعتصر قلبى، وكان حنينى إلى رؤية أهلى وأحبابى يعذب روحى. وما أن انتهت الحركة الأولى من كونشرتو تشايكوفسكى، حتى انسللت خارجاً ومغادراً شقة هليجا فى هدوء، وتنفست الصعداء، حين لفحنى الهواء البارد وأنا فى الشارع..تطلعت نحو شرفة هيلجا حين ابتعدت قليلاً فوجدتها تطل من هناك محدقة فى الفراغ لوحت لها مودعاً والخجل يعترينى، فلوحت لى وقد بان الأسى على ملامح وجهها، أو هكذا خيل لى.

-7-

أنا يا عصفورة الشجن.......مثل عينيك بلا وطن
واغتراب بي...وبي فرح....كارتحال البحر بالسفن
أنا لا أرض ولا سكن.......أنا عيناكى هما سكنى

كانت كلمات هذه الأغنية من أغانى فيروز، تعبر أصدق تعبير عن شكل العلاقة الغريبة التي نمت بيني وبين "ليلى البحرينية " الفتاة التي التقيتها في الأيام الأولى لوصولي لبرلين.

كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وكنت أكبرها بما يقرب من عشرين عاما، بحيث إنها كانت تبدو لى وكأنها ابنتي، لكنها في الحقيقة كانت تذكرني بزوجتي نادية في عنفوان شبابها وحيويتها...العينان السوداوان الواسعتان، والشعر الأسود الناعم الفحم الكثيف وسمرة بشرتها الدافئة...وأهم من ذلك كله مرحها وتلقائيتها الآسرة وبساطة روحها.

كانت تعيش خارج بلادها -لأسباب سياسية- مع أهلها المقيمين بالكويت، وقد جاءت إلى برلين بعد صعوبات بالغة، فحطت رحالها في بوخارست برومانيا لعدة أسابيع ثم انتقلت من هناك إلى برلين لتلتحق بالدراسة في المعهد الحزبي.

لم أعرفها على حقيقتها واقتربت منها بشكل حميم لأعرف تفاصيل حياتها إلا بعد عدة أسابيع من لقاءنا الأول... كان من التقاليد المتبعة هنا للتعارف والتقريب بين الزملاء، إقامة الحفلات العامة التي يدعى إليها جميع الدارسين من مختلف الأجناس ويساهموا فيها بمبالغ رمزية حيث توزع الأطعمة في البوفيه المفتوح والمشروبات الكحولية وغير الكحولية وتنعقد حلبة الرقص لمن يرغب.

وقد دعيت للحضور في أول حفلة أقيمت في مبنى كبير مخصص لذلك وجلست في طرف القاعة أحتسى البيرة الألمانية القوية وأدخن وأرقب الراقصين الذين أخذوا يألفون بعضهم البعض.

وجاءت نورس- الفتاة الفلسطينية- ودعتني للرقص معها وشجعتني لأخرج من عزلتي، لكنني خجلت ورفضت وتعللت بحجج واهية، ورحت أتلهى باحتساء الفودكا التي قدمها لي واحد من الزملاء..وأحسست بعد برهة بنشوة غريبة تعتريني، وحين جاءت "ليلى" وأمسكت بيدي ودعتني للرقص، قمت كالمنون ورحت أرقص "التانجو " دون أن تكون لى أى دراية به.

واحتضنت رفيقتي بحنو وألقيت برأسي على كتفها مستسلما للموسيقى والحركة البطيئة شاعرا بدفء الجسد الذي أحتويه ويحتويني ورحت في غيبوبة طويلة بعد ذلك، ولم أفق إلا صباح اليوم التالي وأنا مستلق في فراشي وقد امحت من ذاكرتي تفاصيل تلك الليلة الصاخبة وجاءت نورس وليلى وعلى السوري لزيارتي وجلسوا يبتسمون ويتغامزون وأنا أنظر إليهم دون أن أفهم السر من وراء ذلك.

وقال لي على ضاحكا:

- يظهر انك لخبطت جامد أوى في الشرب ليلة امبارح.

قلت مستفسرا ومستنكرا:

- أنا عملت حاجة غلط ؟

ضحكت نورس وقالت:

- لا أبدا... دا انت رقصت رقص ماله مثيل

قلت:

- موش معقول... أكيد فيه حاجة حصلت منى ؟!

قال على:

- انت ليه كنت بتبكى ؟

قلت مستنكرا:

- أنا ؟ بكيت ؟!

قالت ليلى:

- مراتك اسمها ايه ؟

قلت:

- اسمها نادية.. .بتسألى ليه عن اسمها ؟...

قالت نورس:

- لأنك كنت نايم على كتف ليلى بتبكى وتقولها يا نادية. سامحيني يا نادية

واستطردت ليلى:

- انت بتحبها للدرجة دى... .يا بختها.

قال على:

- خلاص يا جماعة حصل خير.. كله من تأثير الشرب.

قالت ليلى :

- تعالى معايا بالليل نروح السنترال الدولي، وتكلمهم في مصر وتطمئن عليهم...

وأضافت نورس:

- وأنا ها روح معاكم.. .أكلم أهلى في الأردن.

كانت شوارع برلين تكتظ بكبائن الهاتف، لا يكاد يفصل الكابينة عن الأخرى مائتا متر، وتستطيع أن تتصل بأي مكان في أنحاء ألمانيا بشطريها أو بأى بلد من بلدان أوروبا عن طريق العملة المعدنية.. أما بالنسبة للاتصالات الدولية خارج القارة الأوربية - قبل اختراع الهاتف النقال - فكان الأمر يتطلب استخدام السنترال الدولي.

وقد ذهبنا إليه مساء اليوم نفسه أنا وليلى ونورس...وكان مركزه بمبنى القصر الجمهوري، على مبعدة شارعين فقط من ساحة ألكسندر.

كان مبنى فخما، هائل الحجم، جميع أبوابه ونوافذه وجدرانه من البللور السميك الشفاف، وكان يطل على نهير وجسر مبنى على الطراز الكلاسيكي القديم.

دخلنا معا، وسجلنا لدى الموظف المسئول عنواين وأرقام الهواتف المطلوبة على بطاقات مخصصة لذلك الغرض، وانتظرنا في الاستراحة بجوار الكبائن الزجاجية المرقمة والمتلاصقة حتى يأتي دورنا وينادى علينا، كان المكان مزدحما إلى حد ما براغبى الاتصال من جنسيات مختلفة، أغلبهم أفارقة وآسيويون.

وتكلمت نورس أولا، وبعدها بنصف ساعة جاء دور ليلى التي كانت محادثتها مقتضبة...وانتظرت بعدها طويلا حتى نادى على الرجل وأشار إلى الكابينة الأولى الخالية قائلا:

" اكبتن " – مصر – كايرو – القاهرة" – فدخلت بقلب واجف وأمسكت بالسماعة...تناهى إلى صوت ابنتي ولاء:

– إزيك يا بابا....وحشتني أوى.

– وانتى كمان وحشتينى يا حبيبتي...إزيكم كلكم.

– كويسين الحمد لله.

– وماما ؟ إزيها ؟ عاملة إيه...قولى بصراحة ؟

- ماما كويسة الحمد لله . . .خد كلمها.

سمعت صوت النهنهة والبكاء، وشعرت بصعوبة في النطق.

- مالك يا نادية . . .انت بتعيطى؟

- لا أبدا . . .مفيش حاجة

- عاملين إيه ؟

قالت بنبرة كلها أسى:

- هنعمل ايه يعنى . . .ولا حاجة

- خلاص هانت يا حبيبتي . . .كلها كام شهر وآجى

- تيجى بالسلامة . . . .انت عامل ايه ؟

- كويس . . . .المهم انت

- أنا كويسة الحمد لله . . . .بس الضغط مرتفع شوية

- لأ . . .لأ . . .خدي بالك من نفسك . . . .عرفتى ميعاد ولادتك ؟

- الدكتور بيقول كمان شهرين . . .يعنى على آخر ديسمبر بإذن الله . هاجيبلك ولد.

قلت فرحا:

- صحيح . .؟ . .

وتغلبت على انفعالي وقلت:

- المهم عندي إنك تقومي بالسلامة.

- هتكلمنى إمتى تانى؟ .

- كل يوم سبت الساعة سابعة..يعنى كل أسبوع...واكتبي لي إذا قدرتي.وخلى ولاء تكتب لي - العنوان عندكم - وخلى بالك من نفسك...مع السلامة.

وخرجت من الكابينة وأنا لا أكاد أرى ما حولي....وانتابتني مشاعر شتى وأنا عائد برفقة نورس وليلى التي شبكت مرفقها بمرفقي بألفة.... مزيج من القلق والفرح والكآبة والخوف من مجهول لا أدري كنهه.

وفي ميدان ألكسندر - وكنوع من التسلية لأخراجى من كآبتي.. توقفت ليلى أمام "لعبة الحظ" واشترت نورس لكل منا تذكرة بعشرين فنكا "ما يوازى عشرين قرشا" - كانت اللعبة عبارة عن صندوق ملئ بتذاكر في مغلف صغير تحمل أرقاما مسلسلة.وكل رقم يعنى هدية ما موضوعة في الفاترينة الزجاجية الكبيرة.أو مبلغا من المال لا يتجاوز الخمسة ماركات ولا يقل عن مارك واحد.وأحيانا كثيرة " لاشيء" تجدها مكتوبة على التذكرة بالالمانية "نيشت"

وقد فتحنا تذاكرنا معا، ففازت نورس بخمسة ماركات، وفازت ليلى بدب قطبي كبير أبيض ناصع البياض، أما أنا فكانت تذكرتي تحوى كلمة "لا شيء" "نيشت"

ولم أستغرب كثيرا فأنا دائما ابوء بالخسران في أى رهان في الحياة أو اللعب، والمدهش أن اللعبة استهوتني...كأنني كنت أتحدي حظي....فكنت كلما عثرت على لعبة الحظ..في أى شارع أو أى

ميدان.. أقف لاشترى مجموعة من التذاكر أفتحها بقلب واجف لأعثر على الكلمة المشئومة "نيشت" لكن هذا الحظ التعس.. على العكس، مثل أى مقامر عنيد - لم يجعلني أكف عن المحاولة الدائبة.

لكن الغريب أن "ليلى" كانت كلما صحبتني في رحلة الذهاب أو الإياب من المعهد واشترت تذكرة، كانت تكسب على الدوام، وتقول لي الجملة المشهورة:

- سعيد في اللعب... تعيس في الحب.

واكتشفت... حين روت لي لعض تفاصيل حياتها، أنها ليست فتاة كما كنت أظن، فقد تزوجت ولما تبلغ العشرين من عمرها وأنجبت طفلة، ثم اعتقلت ودخلت السجن، فطلقها زوجها واستولى على طفلتها، وضمن حضانتها بحكم القضاء، وكان والدها الذي قالت لي كم كان يشبهني وكم كانت تحبه، قد مات أثناء فترة وجودها بالسجن فشعرت بالحسرة لأنها لم تتمكن من رؤيته ووداعه قبل أن يوارى الثرى.

قلت لها ضاحكا ونحن نجلس في الكافيتريا التي نصبت مقاعدها تحت المظلات القماش الملونة في قلب الميدان:

- ولا يهمك... اعتبريني بابا ياستى.

فابتسمت ابتسامة مغتصبة، واغرورقت عيناها بدموع استعصت على السقوط.

-8-

بيقولوا الحب بيقتل الوقت
ويقولوا الوقت بيقتل الحب

لعل كلمات هذه الأغنية الصادقة والحزينة لفيروز - كانت تنطبق على في تلك الأيام التي عشتها في ذلك الخريف البارد، الموحش في برلين. فقد كانت غواية الاستغراق في الحب كمهرب من الوحدة، والسقوط في دوامة المعمعة الغامضة لتلك العواطف الجياشة التي راحت تثيرها فيّ، ليلى تلك الفتاة البحرينية واحدا من العوامل التي ساعدتني بطريقة ما على احتمال الحياة في الغربة.

إن إغراء الدخول في تجربة عاطفية جديدة - نهايتها معروفة مسبقاً بالنسبة لي - في عالم غريب ما أزال أتحسس ملامحه، رغم يقظتي العقلية والمحاذير الأخلاقية التي كنت أصنعها كعراقيل أمام رغباتي واندفاعي حتى لا أتورط وأنا في مثل هذه السن في تجربة هوجاء غير

مأمونة العواقب مع فتاة أكبرها بعشرين عاماً قد تطيح بوقاري واتزاني واحترامي لنفسي.

كل هذه الملابسات كانت تحيط بتجربة انزلقت إليها - رغم كل المحاذير - لا أدري كيف، لكنها ساعدت - مثلما تقول كلمات فيروز - على قتل الوقت في الغربة، وبعثت الدفء والحرارة إلى كل شيء حولي في تلك المدينة التي تلفها البرودة والضباب، وتحمل في أحشائها نذر الثورة.

لا أدري كيف تسللت هذه الفتاة إلى حياتي، واخترقت كل حصوني ودفاعاتي ويقظتي العقلية ومنطقي الصارم.ولعل الوحدة والانفرادية كانت واحدة من عوامل انهياري وضعفي، ففي أمسيات الجمعة والسبت عطلة نهاية الأسبوع - كانت وطأة الإحساس بالعزلة ثقيلة خانقة ولم يكن يبددها بالنسبة لي سوى الحفلات النادرة للكونسير ومشاهدة فرق الباليه الزائرة، والاستماع للكلاسيكيات الشهيرة،وكنت في الغالب أحضرها وحدي لا يؤنس وحدتي رفيق - لكنني في مساء يوم من أيام الجمعة أواخر أكتوبر جاءت ليلي إلى غرفتي متهللة الوجه وقالت:

- أنا عازماكْ على سهرة في مكان أنت بتحبه.

- يا سلام - وإية المناسبة ؟

- معايا تذكرتين لغرفة البولشوي في حفل الافتتاح.

اندفعت قائلاً:

- صحيح ؟!

- أيوه..صحيح وحيعرضوا " منتخبات " من باليهات تشايكوفسكي تحب تيجي معايا..ولا لأ ؟

- طيب وريني التذاكر الأول.

فأخرجت من جيوبها تذكرتين كتب عليهما بالألمانية " البولشوي " بخط كبير.وتحتهما بخط أصغر بيتر تشايكوفسكي قلت:

- وإمتي ميعاد الحفلة ؟

- الليلة الساعة الثامنة مساء.

- الساعة كام دلوقتي ؟

- سابعة وربع.

- يعني يا دوب ألبس هدومي.

- خلاص اتفقنا.

- اتفقنا هاستناكي عند البوابة.

حملت لي تلك السهرة التي لم تكن في الحسبان، مفاجآت عديدة - كان أولها فستان السهرة الذي ارتدته " ليلي " تحت المعطف الكشميري الأسود والذي تسنى لي رؤيته فقط حين خلعنا معطفنا وسلمناها للموظف المسئول عن خفظها في " حجرة " مخصصة لذلك..قبل أن نصعد السلالم الرخامية إلى قاعة المسرح الفخمة.كانت ترتدي فستاناً أبيض

عاري الكتفين يكشف عن جمال نحرها وفتوة صدرها الأسمر الناهد.. ويبدو أن وقع المفاجأة والإعجاب ارتسما على وجهي فقد التمعت عيناها السوداوان بابتسامة خلابة وشبكت ذراعها البضة في مرفقي بألفة ونحن نصعد الدرج وندخل إلى القاعة لنحتل مقاعدنا في الصفوف الأمامية.

وفي الاستراحة – بعد أن شاهدنا منتخبات من " بحيرة البجع، وكسارة البندق " –خرجنا إلى الصالة الرحبة المضاءة بثريات خافتة، حيث يوجد "بوفيه" مفتوح تقدم فيه المشروبات الروحية، والمشهيات. واحضرت ليلي – وسط دهشتي من جرأتها – كأسين من الويسكي لي ولها فاحتسيناهما ببطء، وشعرت بالدماء تتدفق في عروقي فدعوتها إلى كأسين آخرين. وما أن انتهت الاستراحة ودخلنا إلى قاعة المسرح وجلسنا وخفتت الأضواء وبدأت الموسيقى الرقيقة تنساب في أرجاء المكان حتى وجدت رفيقتي تلقي برأسها على كتفي وتغفو.

كانت موسيقى " الجمال النائم " تنساب في نعومة، فنظرت ملياً إلى ملامح الجمال النائم على كتفي وبراءة الأطفال تنم عنها ملامحه الدقيقة الرقيقة الوسنانة، وشعرت بأنفاس البنت تلفح عنقي، ونفذت إلى أنفي رائحة عطرها ممتزجة برائحة عرق خفيفة ومثيرة، ولم أشأ أن أوقظها حتى انتهى الحفل وتعالت أصوات تصفيق الحاضرين في القاعة ففتحت عينيها الجميلتين ونظرت إليّ من بين أهدابها الطويلة السوداء بخجل وهي تعتدل في جلستها وقالت:

- ياه – أنا باين علي نمت.. مش كده. آسفة.

- ولا يهمك بتحصل مع ناس كتير.

- أنا كنت سامعة الموسيقى. أكنها كانت في حلم جميل.

- يعني استمتعت بالحفل ؟

- مش مهم أنا – المهم انت. أنا عارفة إنك سميع كبير وعاشق للموسيقى.

- شكراً على عزومتك الغالية.. وتسمحي لي إنى أعزمك على القهوة في مكان مفاجأة.

- يعني مش عاوز تقوللي فين المكان.

- لما نوصل حتعرفي.

خرجنا إلى الشارع المضاء بأنوار كهربائية مبهرة وعبرنا الجسر الطويل الممتد فوق نهير عميق الغور – المؤدي إلى ميدان الكسندر – وليلى تتعلق بذراعي في ألفة محببة، وشعرت بجانب نهدها يحتك في جنبي عن غير قصد فتذكرت على الفور تلك الليلة التي عقدت فيها قراني على " نادية " منذ خمسة عشر عاماً في أعقاب تسريحي من الخدمة العسكرية في أعقاب حرب أكتوبر –1973 حيث خرجنا من محل " المصور " الذي التقط لنا صورة " الزفاف التذكارية " وكنت ارتدي وقتها الإسموكن ونادية ترتدي فستان الفرح الأبيض وتعقص شعرها الأسود الفاحم على هيئة ذيل الحصان – تماما كما تفعل ليلى

– وانطلقنا في أعقاب التصوير في شوارع القاهرة الخالية بعد منتصف الليل في ليلة مثل هذه الليلة من شهر أكتوبر سنة 1976 وعبرنا كوبري قصر النيل والهواء الرطب البارد يلفحنا ويجعلنا نلتصق ببعضنا البعض في حميمية يلحظها ركاب السيارات الملاكي التي كانت تمر بنا وتحيينا بأصوات: الكلاكسات المرحة.

وانتابني حزن مفاجئ، يبدو أنه ارتسم على وجهي لا شعورياً فسمعت صوت ليلى وهي تقول وكأنها أحست بما يعتمل في نفسي:

– ما لك ؟

قلت ساهماً:

– مالي ؟

– شكلك حزين. أنا زعلتك.

– لأ – أبداً – مفيش حاجة.

واقتربنا في تلك اللحظة من رجل ينصب " لعبة الحظ " في طرف الميدان، فتقدمت منه وابتعت تذكرتين بنصف مارك، وأعطيت واحدة لرفيقتي واحتفظت بالأخرى لي.

ولأول مرة في حياتي – وأعتقد أنها الأخيرة – ربحت طاقم من الأطباق الخزفية "الصيني" – 12 طبقاً في علبة كرتونية قال لي الرجل أنها من النوع التشيكي – وقد فرحت بها أيما فرح واحتفظت بها لأهديها لنادية حين عودتي.

أما " ليلى " فقد ربحت ثلاثة ماركات.أخذتها من الرجل وهي مسرورة وقالت:

- خليني أنا أعزمك على القهوة.

- لأ - موش ممكن.. لازم احتفل باللحظة التاريخية التي كسبت فيها شيئا لأول مرة في حياتي.

- طيب حتعزمني فين. أنا تعبت من المشي.

قلت مرحاً:

- تعالي من هنا - خلاص وصلنا.

وانطلقت ضحكتها حين لمحت مبنى "برج برلين" الشامخ وتيقنت من أنني سوف أدعوها للجلوس في الكازينو المقام على قمته - على ارتفاع أربعين طابقاً - التي تطل على مدينة برلينْ بقسيمها الشرقي والغربي من عل، وتكشف خباياها.

جلسنا إلى منضدة على طرف الكازينو الذي اتخذ شكلاً دائرياً يشبه الطبق، يلف على محوره ببطء شديد لا تكاد تشعر به وأنت جالس في مكانك - لكنه أتاح لنا أن نرى المدينة كلها من هذا العلو الشاهق بجميع أجزائها من خلال حركة الدوران المتأنية، وكان أول ما استرعى انتباهي، السور الشائك المكهرب الذي يحيط بالمدينة أحاطة السوار بالمعصم، ذلك السور الذي شهد حالات عبور فاشلة أغلبها انتهت بموت أصحابها ميتات دراماتيكية بشعة جعلتهم عبرة لمن لم

يعتبر وخلقت لدى قطاع عريض من الألمان شعوراً بالكراهية المكبوتة للنظام.

ومن علٍ أيضاً شاهدنا بوابة " براندنبورج " الشهيرة بطراز عمارتها الكلاسيكي الشامخ على الطراز الروماني، والتي تفصل بين شطري برلين ولمحنا هناك تجمعات كبيرة من الألمان الشرقيين تشكل مظاهرة في طور التكوين.

وبدلاً من شرب القهوة، طلبنا من النادل زجاجتي بيرة ثقيلة من النوع التشيكي، ورحنا نحتسيها ببطء وندخن، ونحن نتابع المشاهد المتغيرة تحتنا.

وشعرت بدوار حقيقي في تلك اللحظة، ورغبة في التبول، فنهضت مترنحاً نحو دورة المياه. وحين عدت ألفيتني قد تهت عن المكان الذي كنت أجلس فيه مع ليلى، بسبب الدوران البطيء. أخذت أدور عكس دوران المكان، وقد سيطر على الدوار وعندئذ وجدت من يمسك بذراعي، وكان النادل الذي ابتسم لي وقادني من ذراعي إلى مائدتي حيث كانت ليلى التي راحت تضحك عليّ وتقول:

- انت تهت يا حلو - تعيش وتاخد غيرها.

- مع إني كنت معلم المكان كويس.

- اسمع أنا طلبت القهوة - علشان نفوق لنفسنا ونعرف نروح.

- خير ما عملتي.

وجاء لنا النادل بالقهوة فاحتسيناها على مهل. ونهضنا لندفع الحساب، وعندئذ نظرت في ساعتي فوجدتها قد تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل بقليل.

غادرنا المصعد الذي أقلنا إلى أسفل، وخرجنا إلى الشارع ونحن نحاول أن نتماسك. وكانت اللفافة التي تحتوي الأطباق الخزفية التي ربحتها في لعبة الحظ تثقل ذراعي – وحين اقتربنا من أحد الميادين الصغيرة –، وقرب النافورة الكريستالية التي كانت تضخ المياه الفضية عبر نوافيرها الرفيعة، وقفت مجموعة من الشباب الألمان، حليقي الرؤوس يرتدون الجينز الضيق، ويدخنون سجائر الماريجوانا.

وقد رمقونا شذراً ونحن نمر بالقرب منهم، ودمدموا بألفاظ مبهمة، وتوجست خيفة منهم لأنهم كانوا يضعون وشماً غريب الشكل على أذرعتهم وعلى صدورهم، وهيئ لي أن بعضهم وشم على ذراعه صليباً معقوفاً للنازي.

كانت جماعات من هؤلاء قد ظهرت مؤخراً في المجتمع الألماني بشطريه وأطلقت عليهم الصحافة اسم " النازيون الجدد " لأنهم راحوا يحيون ذكرى هتلر ويمجدون أفكاره وأعماله – وقد دأبوا على كراهية كل ما هو غير ألماني، وراحوا يتحرشون بالأتراك الذين يشكلون أكبر الجاليات في ألمانيا. وقتلوا بعضهم، وأحرقوا منازل البعض الآخر – وتحرشوا مؤخراً ببعض الأفارقة المقيمين في ألمانيا وأصابوهم بجروح خطيرة.

وقد تداعت إلى ذهني وبسرعة كل هذه الصور المخيفة لما يمكن أن

يفعله بنا هؤلاء المتعصبون وهم تحت تأثير المخدرات في تلك الساعة، فأمسكت بيد رفيقتي وأسرعت الخطى. . وما أن تجاوزناهم ببضعة أمتار حتى سمعنا سبابهم يعلو:

- كوميونست "شيوعيون" أوغاد.

وسمعت صوت جنزير حديد يصفر في الهواء فالتفت للخلف وأبصرت بعضهم يخرج من جيبه مطاوي ذات مقبض عاجي يفتحها في صوت مسموع وأدركت بحدسي السيناريو القادم لما سوف يحدث فأمسكت بذراع ليلى بقوة وقلت:

- ياللا نجري يا ليلى - بسرعة - بسرعة.

وانطلقنا بكل ما فينا من قوة، وبغريزة حب الحياة. وانطلق بعضهم في أعقابنا، وشعرت بأن اللفافة التي في يدي - لفافة الأطباق الخزفية تعوقني عن الانطلاق بخفة، فتركتها تقع على الأرض.

وسمعت صوت الحطام يتناثر على أرض الشارع الأسفلتية ويصطدم بالمطاردين.

وانطلقنا في عدونا حتى بلغنا محطة مترو الأنفاق في ميدان الكسندر فدخلنا مسرعين وهبطنا الدرج قفزاً لنختلط بالناس القلائل الذين كانوا ينتظرون المترو ونحن نلهث ونحاول التقاط أنفاسنا.

ونظرت إلى ليلى، ونظرت إلى وحبات من العرق تعلو جبهتها - وأخذنا نضحك. . وما أن ركبنا المترو وانطلق بنا حتى حمدت الله على أن هذه الليلة الحافلة بالمفاجآت قد انتهت على خير.

-9-

مع بداية شهر نوفمبر، بدأ الجليد يسقط بكثافة على برلين. وصحوت ذات صباح لأجد الدنيا وقد ابيضت من حولي مرة واحدة الشوارع والأشجار والمباني وأسطح الأنهار.

وبدا لي الناس كما الأشباح وهم يجوسون بحذر في الشوارع خلال الثلج والضباب. وفى منتصف نوفمبر عام 1989 بدأت الشائعات تنتشر حول فساد كبار المسئولين في الحزب وفى الحكومة الاشتراكية... مسئولين قيل إن بعضهم كان يتاجر في الأسلحة لحساب دويلات العالم الثالث الفقيرة وان بعضهم - ومنهم كوتكير نفسه - رئيس الجمهورية، جمع ملايين الدولارات والماركات الغربية ووضعها في حسابه في بنوك سويسرا.

وانتشرت الشائعات أيضا - التي كان يتزعم نشرها مجموعة من الصحف اليمنية المدعمة من الغرب كما أتضح فيما بعد - عن الحياة المرفهة التي يحياها المسئولون الحزبيون والشيوعيون بالذات، أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يحضرون كافة ألوان الطعام الفاخر والخبز

الفرنسي والأجبان الفخمة واللحوم والشمبانيا من أوربا الغربية.

وفجأة علت الدمدمة وظهر السخط جليا بين عموم أفراد الشعب وتبلور تدريجيا في مظاهرات راحت تنمو وتكبر وصدامات بين الجماهير ورجال الشرطة في كل مدن ألمانيا الشرقية.

وفى الرابع من نوفمبر تظاهر نصف مليون ألمانى فى ساحة ألكسندر شرق برلين مطالبين بإجراء إصلاحات فى مؤسسات الدولة ـ وفى مساء التاسع من نوفمبر 1989 أعلن المتحدث الرسمى جونترشابوفسكى فى حديث بثه التلفزيون، باسم الحكومة الألمانية الشرقية، عن قانون السفر الجديد لمواطنى ألمانيا الشرقية وتسبب بطريق الخطأ البرى أو المتعمد فى انهيار جدار برلين.

ففى سؤال للمذيع عن متى سيبدأ التطبيق للقانون الجديد قال الرجل:

ـ حسب علمى سيبدأ تنفيذ قانون السفر الجديد فى الحال.

وعلى الفور اندفع الناس بعد تصريح الرجل وبأعداد هائلة إلى بوابة براندبنورج مما أضطر السلطات إلى فتح المعابر بين شطرى المدينة وكان ذلك بالفعل إيذاناً بنهاية التقسيم.

وبين عشية وضحاها، وفى مبادرة محسوبة ومخططة، فتحت ألمانيا الغربية أسوار برلين للألمان الشرقيين ليزورها بدون تصاريح ولا جوازات سفر بدعوى حقهم في زيارة أهلهم وذويهم مع منح كل ألمانى شرقي يزورهم مائتي مارك غربي مصروف جيب.

وأذكر أن المارك الالمانى الغربي كان وقتها يساوى في السوق السوداء بقلب برلين عشرة ماركات ألمانية شرقية. . .ولم تستطع حكومة ألمانيا الشرقية أن تمنع مواطنيها من حق زيارة ذويهم على الجانب الأخر في برلين الغربية، لكنها اشترطت أن يحصل كل مواطن على تصريح خاص من قسم الشرطة التابع له سكنيا.

وذات صباح فوجئت بأن برلين الشرقية قد امتلأت شوارعها كلها بطوابير طويلة يصل مدى بعضها إلى نصف كيلو متر أمام أقسام الشرطة للحصول على التصريح بالزيارة ثم الحصول على المائتى مارك من قنصلية ألمانيا الغربية.

وقالت هيلجا مترجمتنا. . .التي كان لها أقارب بالجانب الأخر من برلين أن الألمان الشرقيين هجموا كالجراد على السلع في محلات برلين الغربية ومسحوها في يوم وليلة وان بعضهم استبدل الماركات الغربية بماركات شرقية اشترى بها لحوما وسلعا غذائية رخصية من برلين الشرقية وباعها في برلين الغربية بسعر كبير واشترى بالعائد سلعا غربية راح يتاجر فيها.

وأحسست أنا الغريب القادم من بلاد العالم الثالث، بأن الحلم الاشتراكي بدأ يتهاوى أمام عيني شيئا فشيئا، وداهمتني الكآبة في تلك البلاد الغريبة، ولمحت بدايات النهاية في ليلة شتوية كنت عائدا فيها من دار الأوبرا حيث شاهدت أوبرا مدام بترفلاى.

رأيت بدايات موت الحلم الذي جاء بى إلى هنا حين شاهدت بعيني دمية كبيرة معلقة على عامود نور بالقرب من مبنى القصر الجمهوري تمثل " هونيكر " زعيم الحزب الاشتراكي الألمانى.ورئيس الدولة، مشنوقا ورقبته مدلاة على صدره وكان الألمان العابرون ينظرون إليها ويضحكون وقد تجلت الشماتة في أعينهم بينما رجال البوليس الألمان يحيطون بالمكان وقد سيطر عليهم الخوف.

في أواخر نوفمبر حمل إلى البريد القادم من القاهرة خطابا من ابنتي انبأتنى فيه بتردي الحالة الصحية لأمها، وأن الطبيب عادها في المنزل مؤخرا وأمرها بأن تلزم الفراش لمدة أسبوع على الأقل، وأن تستريح تماما ولا تبذل أى جهد خوفا على حياتها وحياة طفلها.

وأضافت في خطابها بأنها ضبطتها تبكى في حجرتها مرات عديدة كلما انفردت بنفسها، وقالت في نهاية خطابها أن ماما ترسل إليك بسلامها وتبعث لك بشريط كاسيت مسجل عليه أغنية فيروز " سألوني الناس عنك يا حبيبي " فلعلها تكون أبلغ من أى خطاب ترسله إليك.

أحزننى كثيرا هذا الخطاب، واسترجعت في ذهني كلمات الأغنية التي كنت أعرف كم تحبها زوجتي نادية والتي أتخيل الآن دموعها تنسال فوق خديها وهى تستمع لكلماتها:

سألوني الناس عنك يا حبيبي

كتبوا المكاتيب وأخدها الهوى

بيعز على غنى يا حبيبي

لأول مرة ما بنكون سوا "

كان لهذه الأغنية بالذات ذكرى خاصة عزيزة على قلبي.فقد كانت نادية – في فترة تعارفنا – وقبل أن نعقد قراننا – قد أرسلتها لي مكتوبة في أحد خطاباتها التي كانت ترسلها بانتظام أثناء فترة تجنيدي عام 1972 في مركز تدريب المظلات بالعامرية بالإسكندرية.

كان يصلني منها خطاب أو اثنان كل أسبوع...وكانت خطاباتها هي عزائي الوحيد أثناء عزلتي في تلك المنطقة القاحلة والتي استمرت لثلاثة أشهر.

وعقب انتهاء فترة التدريب تقدمت إلى أهلها وكانوا جيراننا في حي الغورية وخطبتها.واتفقنا على عقد القران في أعقاب انتهاء فترة تجنيدي واستلامي لخطاب التعيين بالوظيفة " الميرى " من خلال مكتب القوى العاملة، التي كان لها وجود آنذاك.

وقد شاءت الأقدار أن أشارك في حرب أكتوبر عام 1973 وان أظل بالخدمة العسكرية حتى نهاية عام 1975 حين تم تسريحي، واستلمت وظيفتي بالحكومة.

وكانت الفترة العصيبة التي قضيتها من أوائل أكتوبر 1973 وحتى

منتصف ديسمبر من هذا العام هي التي كشفت لي عن عمق العاطفة التي تربطني بتلك الفتاة التي لم تنقطع خطاباتها لي بشكل يكاد أن يكون يوميا، ولم تنقطع عن أغنيات فيروز التي كانت ترسلها لي على عنواني في الكتيبة بعد ذلك، والتي جعلتني من عشاق صوت فيروز الملائكي.

وما إن استلمت عملي في الحكومة بعد تسريحي في أوائل يوليو من عام 1976 حتى عقدت قراني على نادية ورحنا نبنى عش الزوجية خطوة خطوة من خلال مواردنا المتواضعة...ومع نهاية العام وقبل زفافنا بأيام بعد عثورنا على سكن في المدينة الغمالية بحلوان...وما إن حل يناير من عام 1977 حتى قامت الانتفاضة الشعبية ضد الغلاء التي أطلقت عليها السلطة وقتها اسم " انتفاضة الحرامية " وكان قدري أن أعتقل في أعقاب تلك الانتفاضة وأن أقضى بضعة اشهر في ليمان طرة " بالمزرعة " في تلك الفترة العصيبة تكشف لي أيضا قوة عزيمة تلك المرأة وقوة ارتباطها بي، فلم يكن يمر أسبوع إلا وكانت تحصل على إذن بالزيارة من خلال محامى " الحزب " وكانت تأتى لتحادثني بوجه بشوش وابتسامة مشجعة بينما كانت عيناى تلاحظان الهالات السوداء العميقة تحت عينيها السوداويين الواسعتين والتي كانت تحاول إخفاؤهما بالماكياج والمساحيق عبثا.

وفى نهاية صيف عام 1977 تم الإفراج عنى مع مئات من المعتقلين

ولم يمض أسبوع على خروجي إلا ودخلت " سجن الزوجية " لكن تاريخ حياة مليئة بالمصاعب كان قد ربط بيني وبين تلك المرأة التي وقفت بجواري طوال حياتها ولم تتخل عني بعد ذلك أبدا.

وانقبض قلبي بعد أن استمعت إلى كلمات الأغنية مرارا... واجتاحتني الذكريات، ولم أستطع البقاء في المنزل وكنا وقتها في العطلة - يوم الأحد - فخرجت أتمشى في شوارع برلين التي كساها الجليد بطبقة كثيفة، لعل المشي يجعلني أبدد الطاقة الحبيسة في داخلي - طاقة الحزن والغضب والإحساس المتنامي بالعجز.

مشيت باتجاه محطة مترو الأنفاق، دون أن أستعين بالترام رغم طول المسافة ورحت أتمشى باتجاه ميدان ألكسندر في الطريق المحاذية لمسار مترو الأنفاق...ووجدت نفسي بعد ساعة من المشي الحثيث في حي " شون هاوزر اليه " حي المساكن الجميلة.

جلست على أحد المقاعد الخشبية في الحديقة العامة..ومرت فوق رأسي طائرة كبيرة من طراز بوينج " للانترفلوج " تبعتها بعد قليل طائرة أخرى...وأدركت عندئذ أنني قريب جدا من مطار العاصمة.

قلت لنفسي لو أتمكن الآن من ركوب الطائرة العائدة إلى القاهرة لكنني كنت أعرف أن طائرة القاهرة ترحل في الثانية ظهرا بتوقيت برلين كل يوم ثلاثاء...وتصل إلى القاهرة في السابعة مساء وأحسست وأنا أتذكر كلمات ابنتي بأنني لم أكن أصلح زوجا ولا أبا مادام قلبي قد

طاوعني على ترك اسرتى في مثل هذه الظروف . . . ومن أجل ماذا ؟ من أجل قضية يتخلى عنها أصحابها الآن طمعا في الحلم المخادع برفاهية العالم الرأسمالي الحر.

ترى هل كنت أعزى نفسي وقتها بمثل هذا الكلام لأن إيمانى أنا نفسي قد تزعزع في تلك اللحظة وأنا أشهد عالما مثاليا - أو هكذا تخيلت - يوشك على الانهيار، ودول في سبيلها إلى التحلل والذوبان . . . وكنت أرقب نذر العاصفة بقلب واجف، وأرى المسئولين الحزبيين وكذلك أساتذتنا في معهد الدراسات الاشتراكية وقد أصابتهم الحيرة والهلع مما هو قادم . . . وكنت أسأل نفسي . . . ترى ماذا سيكون مصيرنا نحن ضيوف الحزب والدولة ؟ هل سيفكر أحد ما فينا إذا حدث السقوط.

وبعدها بيومين جاءنى اتصال هاتفي من براغ بتشيكوسلوفاكيا بينما كنت في المعهد، من حجرة العميد فذهبت مندهشا لأرى من يتصل بي . . وجاء لي صوت مسئول البعثات الدراسية في حزبنا يقول لي أنه يرتب لرحيلي لموسكو لاستكمال دراستي حيث إنه يعلم تماما بحقيقة الأجواء السائدة الآن في برلين، فأخبرته بأننى لست على استعداد للسفر إلى أى مكان آخر لظروفي العائلية وأننى إذا ما قدرت استحالة مواصلة الدراسة أو العيش في برلين فسوف أرتب للعودة إلى القاهرة خلال الشهر القادم . فقال لي " فكر جيدا . . . قبل أن تتخذ أى

قرار واتصل بي على الرقم التالي...وأعطانى رقم هاتفه في براغ... لنتفق على ما يجب عمله.

ونتيجة للقلق والانفعال والتوتر، والإفراط في التدخين والشرب أصبت أثناء الدراسة بالمعهد بضيق في التنفس وألم حاد في صدري وأغمى على، ونقلني الزملاء إلى المستشفى، وتم حجزي لبضعة أيام في "العناية المركزة" حيث تبين أصابتى ولأول مرة في حياتي بمبادئ ذبحة صدرية نتيجة قصور مفاجئ في عضلة القلب..كما شرح لي الطبيب المعالج الذي أمرني بالإقلاع عن التدخين وشرب الخمر والتزام الراحة وعدم التعرض للتوتر والانفعال.

وخلال تلك الفترة التي أمضيتها بالمستشفى..لم يكن لي من رفيق وراع سوى "ليلى" التي لازمتني صباح مساء...وكانت تشرف على إعطائى الدواء وتناول الطعام، وتحضر لي الصحف والمجلات وتقرأها لي...حتى لقد ظنوا في المستشفى أنها حبيبتي أو زوجتي.

وحين غادرت المستشفى أحضرت تاكسيا مع هيلجا وصحبتني إلى حجرتي وقالت أنها ستقيم معي مؤقتا حتى تطمئن إلى اننى قد استرديت عافيتي، وشعرت بالخجل منها وقلت لها اننى لن أستطيع ان أرد لها جميلها أبدا...فقالت:

- الحب ليس جميلا ينبغي رده

قلت:

- وماذا يمكنني أن أعطيك مقابل حبك لي ؟ إننى في عمر أبيك وأشبهه كما قلتي....لو كنت أصغر سنا مما أنا الآن عشرين عاما، لكنت أحببتك ومنحتك قلبي وعمري.لكنك الآن للأسف جئت متأخرة كثيرا يا ليلى...أنا رجل كهل متعب القلب ملئ بالهموم... لا تربطي مصيرك بي.

- أرجوك لا تعكر صفو سعادتي....أنا سعيدة أن أكون بجوارك... أخدمك وأعتنى بك كأنك أبى...ولا أطلب منك أى مقابل.

حاولت أن أرد عليها فوضعت كفها على فمي برفق...وقبلتني في جبيني، فأغمضت عيني بقوة وأنا أشعر بهما تغرورقان بالدموع.

———•••••••———

بعد مرور خمسة أو ستة أسابيع من وصولى إلى برلين، وجدت فى صندوق بريدى رسالة من (ن.ى) أحد المصريين اليساريين المقيمين فى برلين منذ عدة سنوات يطلب لقائى، وقد ترك لى رقم تليفونه لتحديد الموعد إذا رغبت.وثار فضولى ـ وتساءلت عن سبب رغبة هذا الرجل فى لقائى، وكانت لدى معلومات غير مؤكدة بأنه منشق عن الحزب، فقررت أن أتناسى الموضوع حتى لا أقع فى الشبهات ـ ومر أسبوع فوجدت رسالة أخرى من نفس الشخص يطلب لقائى عاجلا فى "برلين شتاد" وهو من الفنادق الفخمة فى قلب برلين، وقررت من باب الفضول أن ألتقيه لأعرف ماذا يريد منى.

وفى ظهر يوم سبت التقيت الرجل، فتأكد لى أنه رفيق من حزبنا وأنه مسئول تنظيمى يقيم هنا منذ عدة سنوات، وأنه متزوج من ألمانية ويحمل الجنسية الألمانية أيضاً، وتطرقنا شيئاً فشيئاً إلى السبب الذى من أجله طلب لقائى فعرفت أن الانشقاق فى صفوف حزبنا، قد أصبح حقيقة واقعة، وأنه قد تم تكوين حزب جديد يدعى "حزب العمال الشيوعى" وأنهم يعلمون بمدى جديتى ونشاطى وإخلاصى، وبتاريخى المشرف فى العمل الحزبى ويودون لو انضممت إليهم وتركت "مجموعة الانتهازيين" كما يسميهم الزميل.وقال لى أن "أ.ن.هـ" المحامى العمالى اليسارى الشهير سيصل إلى برلين خلال يومين ليلتقى بأعضاء اللجنة المركزية فى الحزب الاشتراكى الألمانى لمحادثتهم بشأن الحزب الجديد، وقال أنه سيمنحنى فرصة لمدة أسبوع لأفكر وأقرر ماذا سأفعل.

وتركته وأنا فى حالة من البلبلة، وعلمت بعد ثلاثة أيام أن "أ.ن.هـ" هو الرفيق المسئول عن الحزب الجديد وصل إلى ألمانيا وألتقى المسئولين وأقنعهم بأفكار حزبه اليسارى الجديد لينال اعترافهم به، وتأكد لى خبر اللقاء من الرفيق جونتر، ومن هيلجا أيضاً.

وفى لقائى الثانى بالرفيق "ن.ى" قلت له بصريح العبارة أننى لا يمكن أن أقرر ـ وأنا فى الغربة ـ الانشقاق عن الحزب الذى أرسلنى للدراسة هنا، وأنه ليس من المعقول أن يكونوا قد منحونى ثقتهم

وأخذوا على عاتقهم الإنفاق على أسرتى فى غيابى، ورعاية زوجتى التى توشك على الوضع، وأنا أخون هذه الثقة وأنشق عليهم وأنضم لحزب مناوئ لهم. هذا تصرف - في رأيي - غير أخلاقى، ولا يليق بى من جميع الوجوه - وأننى إذا قررت أن أنضم إليهم فسوف يكون هذا بعد عودتى إلى مصر - ومناقشة مبررات الانشقاق إذا كانت مقنعة.

ولم يجد الرفيق مفراً من موافقتى على رأيى وطلب منى ألا أقطع الصلة بينى وبينه وأن نلتقى من آن لآخر ومضى كل منا فى طريقه. ولم أره بعد ذلك لكننى علمت أنه لم يغادر ألمانيا فى أعقاب سقوط برلين، وإعلان الوحدة بين شطرى الألمانيتين.

-10-

أخذت المظاهرات تنتشر في جميع أنحاء البلاد تدريجيا...بدأت بتجمعات قليلة في الميادين الشهيرة، كان أغلبها من المثقفين والكتاب.

ثم راحت تتنامى وتزداد ضخامة بانضمام شراذم من العمال الساخطين ثم اتسعت وأصبحت أكثر تنظيما بانضمام الاتحادات والنقابات العمالية.

في البداية كان بامكان قوات الأمن تفريقها والتصدي ليها...لكن مع اتساعها وتضخمها أصبحت الشرطة في وضع يرثى له.وأذكر أنني كنت أتمشى مع ليلى عقب انتهاء الدراسة بالمعهد...غادرنا محطة متحف ماركس وعبرنا من وسط ميدان ألكسندر، وكنا نقترب من محطة روزا لوكسمبورج حين شاهدنا مظاهرة حاشدة بالقرب من الميدان الصغير...وكانت الشرطة تحاول صدها وإيقافها عن التقدم باتجاه ميدان ألكسندر حيث كان مقصدها المعلن بواب براند نبورج التي تفصل بين شطري برلين.

كان الزحف المنظم لجحافل المتظاهرين يجبر الشرطة على التراجع

والشيء المثير للدهشة أو ما بدا مثيرا للدهشة أمام عيني أن المتظاهرين هم الذين كانوا يتحرشون برجال الشرطة ويدفعونهم للاشتباك معهم ويقومون باستفزازهم وضربهم دون أن يجرؤ رجال الشرطة على الرد بالعنف المعتاد.

كان هذا المشهد غير مألوف لي، فالعكس هو ما يحدث في مصر. والناس عندنا يتجنبون عصى الأمن المركزي المكهربة وقنابل الغاز الخانق والمسيل للدموع.

كنا نود أنا وليلى أن ننضم للمظاهرة - لكننا لم نستطع - إذ كان علينا أن نجتاز الصفوف المتراصة لرجال الشرطة لنصل لحشود المتظاهرين....فأثرنا التراجع عبر احد الشوارع الجانبية وتقهقرنا مرة أخرى نحو ساحة ألكسندر تاركين المظاهرة وراءنا، وجلسنا معا بأحد المطاعم التي تقدم أطباق الدجاج المقلي والمشوي لنتناول العشاء. وكان من حسن حظنا أن وجدنا مائدة خلت لتوها.

رحنا نتناول الحساء الساخن الذي كانوا يقدمونه في بداية الوجبة في أكواب فخارية كبيرة تشبه "المج" وقالت ليلى:

- الأحوال هنا تزداد سوء يوما بعد يوم.

- كل شئ كان هادئا حين جئنا من شهرين.

- هل كنت تتوقع ان يحدث كل هذا ؟

- إنه جبل الثلج العائم

- لا . . . .إنه البركان الذي نشط فجأة.

- طيب. . .وما العمل ؟

قالت ليلى بعد فترة صمت:

-اسمع أنا سوف أذهب إلى موسكو لاننى لا أستطيع العودة إلى بلادي الآن. . . .هل ستأتي معنا ؟

ضحكت وقلت:

- الحقيقة. . .لم أقرر بعد

ألم تكن تحلم بالذهاب إلى موسكو؟

- كنت أحلم فعلا. . .لكنني لم أتصور أن يتحقق حلمي على هذا النحو الغريب.

-أيعنى هذا أنك ستعود إلى مصر؟

- على الأرجح.

قالت بانفعال:

- وماذا في مصر. . .أفضل من هنا أو موسكو.

- لاشيء. . .سوى أن فيها أهلي وزوجتي وابنتي وطفلا رضيعا سيأتي إلى العالم في غيابي

نظرت إلى بعينين غشيهما الحزن ولم تعقب

وأحضرت لنا الفتاة الألمانية الجميلة التي تقوم بالخدمة في المطعم أطباق الدجاج مع البطاطس ووضعتها أمامنا على المنضدة وابتسمت لنا وهى تنصرف. .فرحنا نأكل بلا شهية وقد انسحب كل منا إلى داخل نفسه محتميا في الصمت.

في مساء اليوم نفسه، وكنت قد استلقيت في فراشي منذ فترة طويلة محاولاً اجتلاب النوم إلى جفوني، وقد اعتراني قلق مفاجئ، تسبب في سهادي، سمعت صوت نقرات أصابع أنثوية على بابي، فنهضت والدهشة تعتريني وفتحت لهذا الطارق في مثل هذا الوقت وقد خمنت أن تكون زائرتي هي ليلى، أو نورس..ولكن المفاجأة هي هيلجا التي وقفت على بابي مرتدية معطفا من الفراء الأبيض وفي يدها حقيبة سفر متوسطة الحجم، نظرت إلي بابتسامتها المعهودة دون أن تتكلم فأفسحت لها لتدخل، وحملت عنها الحقيبة وأغلقت الباب ورائي، وتطلعت نحوها مستفهماً. قالت:

ـ ممكن أبات عندك الليل؟

رفعت حاجبي مندهشاً. قالت:

ـ موش موافق. أمشي

قلت مستدركاً

ـ أبدا أبدا أهلاوسهلا بيكي...لكن زي ما انتِ شايفة مفيش غير سرير واحد

قالت ضاحكة:

ـ متهيأ لي.. ممكن يكفينا. أنا وأنت

ـ كما تشائين..

خلعت معطفها وجلست بجواري على الفراش، وراحت تحكي لي سر هذه الزيارة الليلة المفاجئة.

روت لى أنها حصلت على تصريح بزيارة برلين الغربية، وأنها سوف ترحل فى الصباح الباكر، وقد قررت ألا تعود إلى هنا مرة أخرى، بل ستقيم هناك فى الغرب، وستعمل فى وكالة سياحية عثر لها زوجها السابق على عمل فيها ودبر لها مسكناً، وسوف تكون قريبة من ابنها الذى سيقيم معها بعد ذلك لأن زوجها أو على الأصح طليقها، أصبح مرتبطاً بامرأة أخرى، وما يجمعهما الآن، ليس سوى الصداقة وابنهما الذى ينبغى رعايته.

وعرضت على هيلجا أن آتى للاقامة معها فى مقرها الجديد وأعطتنى عنوانها وتليفونها وقالت إنها ستنتظرنى شهر.. اتنين.. تلاته ولن تمل إلا إذا كنت لا أرغب فيها ولا أحبها كما أحبتنى.

ابتسمت لها محرجا ولم أرد فقبلتنى فى فمى قبلة سريعة جعلتنى أشم رائحة طلاء الشفاه الوردى المثير الذى تضعه.. قلت لها إنه ينبغى أن نحتفل بهذه المناسبة التى لا أدرى إذا كانت مناسبة سعيده أم حزينة، ونهضت فأحضرت زجاجة ويسكى اسكتلندى مستوردة اشتريتها صباح اليوم من السوق الحرة بعشرة دولارات كانت متبقية معى.

وشربنا كأسين معا وروحنا نضحك لأتفه الأسباب واستأذنتنى بعد برهة فى تغيير ملابسها ودخلت الحمام وغابت عشر دقائق، سمعت خلالها صوت مياه الدوش وخرجت بعدها وقد ارتدت قميصا أحمر

للنوم من نوع الشيفون الحريرى على اللحم لا يظهر من تحته أى ملابس داخلية بل يكشف عن نهديها الصغيرين وبطنها المتماسكه وفخذيها البديعين وساقيها المليئتين بزغب أصفر ناعم مثير، وكان شعرها الأصفر الذهبى منثورا على كتفيها المدورتين.

وبدت أمام عينى كحورية من حوريات البحر. انعقد لسانى دهشة وإعجابا أمام هذا الجمال الطاغى، ودرات رأسى بتأثير الويسكى، ولم أستطع الوقوف على ساقى وأنا أتأملها والدم يغلى فى عروقى فتراجعت والقيت بجسدى على الفراش، و فى خلال ثوان انطفأ نور الغرفة وشعرت بهيلجا وجسدها الحار المثير فى جوارى وشممت عطرها النفاذ، فوضعت رأسى فوق صدرها كطفل وشعرت بذراعيها تحتوينى ولفحتنى أنفاسها فغبت عن الوجود.

وفى الصباح حين استقيظت، لم أجد لها أثرا فظننتنى كنت أحلم، لكننى وجدتها قد كتبت لى بقلم الروج على سطح المرآة كلمة وداعا بالألمانية فابتسمت محزونا لفراقها، وكنت أدرك بوضوح لا لبس فيه أننى لن أراها أبدا بعد ذلك

———•••••••———

يقال إن كل مناضل ثورى هو مشروع خيانة محتمل حتى يموت.. فكرت كثيرا فى هذه المقولة بعد أن فرت هيلجا الى برلين الغربية لتلتحق بزوجها وابنها..فها هى واحده من أشد مناصرى "النظام"

وأحد أعضاء الحزب النشطين والمنتدبة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى للتعامل مع اليساريين الوافـدين من الدول العربية، ها هى تهرب وتحاول النجاة بنفسها قبل أن ينهار المعبد على رؤوس أصحابه..ترى هل ستنجح فى البدء من جديد فى مجتمع مغاير لما ألفته؟ هل ستتمكن من التآلف مع عالم آخر طالما ناصبته العداء؟ !

لقد ذكرت لهليجا تلك المقولة عن خيانة الثوريين فى مرة من المرات حين صارحتنى بأنها تفكر جدياً فى الهروب إلى الغرب - فنظرت إلى وابتسمت فى مرارة وقالت:

- لا تنس أن هناك قانونا تحدث عنه ماركس اسمه قانون التغير.

- نعم أذكره - ويقول إن "كل شيء يتغير ما عدا قانون التغيير"

- إذن فالإنسان كجزء من الطبيعة وكجزء من المجتمع مؤثر ومتأثر، هو أول كائن يتغير بفعل المتغيرات من حوله سواء كان سلباً أو إيجاباً.. وإذا كانت عشرين عاماً من العمل الدؤوب والصبروالكفاح فى سبيل بناء أسس مجتمع اشتراكى آمنت به وانتهى إلى نظام دكتاتورى، لا ديمقراطى - معاد للحريات، لم يفلح فى توفير أسس الحياة المادية الكريمة للناس، وأفلح فقط فى تكوين نخبة حاكمة جمعت الملايين لحسابها من دم الشعب، ولما بدأت نذر انهيارها راحت ترفع الشعارات..ليس العيب فى الماركسية ولا فى اللينينية ولى فى الفكر الاشتراكى العظيمة وإنما فى هؤلاء القادة الذين حولوا أنفسهم إلى آلهة لا يمكن محاكمتها.

واستطردت بانفعال:

- لا يمكن أن تلومنى على تفكيرى فى الهروب للالتحاق بابنى.. أنت هكذا كمن يلوم شخصاً يحاول أن يقفز من سفينة تغرق.. صحيح أنه قد يواجه الموت غرقاً بأى شكل من الأشكال، لكنه فى لحظة الانهيار الكبرى وتداعى السفينة، لا شعورياً يفكر فى إنقاذ حياته.

- ألا يمكن لأى شيء أن يثنيك عما تفكرين فيه؟!

- ممكن طبعاً.. إذا استطاع هذا النظام أن ينقذ نفسه قبل فوات الأوان ويعالج مواطن الخلل.. كلنا نعمل معا الآن من أجل هذه الغاية ولكن ودعنى أسألك سؤالاً واحداً أيها المناضل القادم من بلاد الفراعنة إذا كنت تلومنى وتعتبرنى مشروع خيانة محتمل. لأننى فكرت فى اللحاق بابنى. فلماذا لا ألومك أنا لأنك تتعذب لعدم قدرتك على مغادرة ألمانيا والعودة إلى وطنك.

- أنا فى وضع مختلف يا هليجا ـ لا تنسى ـ ألمانيا ليست هى وطنى أنا مصرى ـ وسوف يتعين على أن أعود إلى وطنى وأهلى اليوم أو غداً.

- أنت مناضل ثورى يسارى.. لا تعترف بالقوميات.. وطن الاشتراكية هو وطنك أينما كان.

ضحكت طويلاً وقلت:

- أنت تحفظين الكلام الكبير جداً يا هليجا ـ لم يعد أحد يردد هذا الكلام الآن ـ وكما قلت منذ لحظات.. عندما تغرق السفينة ـ كل أمرئ يفكر فى النجاة بنفسه.. ولو كانت ألمانيا هى وطنى ما فكرت

فى مغادرتها أبداً وكنت سأبقى ـ كما الربان الحقيقى الأصيل ـ آخر من يغادرها.

مالت على وقبلتنى فى خدى بحنو وضحكت والدموع تطفر من عينيها وقالت:

– حسنا أيها الربان. . سنرى إلى متى ستبقى قبل غرق السفينة.

———•••••••———

مع حلول شهر ديسمبر، اكتست برلين ثوباً من البياض الناصع، واختفت الشمس تماما ولم تعد تظهر لأيام عديدة متواصلة. وانخفضت درجة الحرارة إلى مادون العشر درجات تحت الصفر وكان الثلج يهطل بغزارة ساعات طوال من النهار والليل. . . وكنت أشاهد الجرافات وهى تقوم بكسحه وتجريفه على جانبي الطريق وتكويمه في كومات عالية، تحمله بعد ذلك سيارات نقل مخصصة لهذا الغرض.

وواكب انهمار الجليد والبرودة الفظيعة، امتلاء الشوارع والميادين بأشجاز عيد الميلاد التي كانت تضيء بأنوارها الصغيرة الملونة شوارع برلين الشهباء.

ورغم ذلك لم تنقطع المظاهرات ولم تكف، بلى على العكس ازدادت وتفاقمت وراح الناس يتجمعون في الميادين وقد ارتدوا المعاطف الثقيلة وقبعات الفراء وهم يحملون في أيديهم الشموع والمشاعل واللافتات الرافضة للفقر والحرمان والدكتاتورية وبدأت حركة استقالات جماعية في صفوف الحزب الشيوعي الألمانى. . . .

وانشق الاتحاد العام للعمال على نفسه، وكان الركيزة الأساسية للحزب الحاكم، وبدأ التليفزيون الحكومي يسجل وينقل على الهواء مباشرة المناقشات والندوات السياسية التي أخذت تعكس حالة البلبلة والخذف من مجهول قادم لا محالة.

وقررت أن أتصل بالرفيق المسئول في براغ لإبلاغه بأن قراري قد استقر على ضرورة العودة إلى مصر، وإننى لن أذهب إلى موسكو أو غيرها من البلدان.

وفى مساء يوم السبت - حوالي منتصف ديسمبر- في الموعد المتفق عليه، والمحدد لاتصالي بالقاهرة، ذهبت إلى السنترال الدولي وحدي، ولم أنتظر طويلا في تلك المرة.

وجاءني صوت ابنتي حزيناً ليبلغنى أن نادية زوجتي دخلت المستشفى قبل الميعاد المحدد لولادتها بأكثر من أسبوع، لتبقى تحت الرعاية والملاحظة حتى يحين موعد الولادة، حيث إن حالتها تزداد خطورة.وأنبأتنى البنت قبل أن أسألها لها، بأنها تقيم الآن مع خالتها التي أرتب للعودة خلال الأسبوع القادم لأكون بجوار ماما حين تلد طفلها....وودعتها وأنا أشعر بأن البنت كانت طوال الوقت تحاول التماسك بصعوبة.

واتصلت بعدها من التليفون العمومي في ميدان ألكسندر بالرفيق في براغ وأبلغته بظروفي الأسرية، وبرغبتي في السفر على وجه السرعة

على متن الطائرة المسافرة إلى القاهرة يوم الثلاثاء القادم فقال أنه سوف يحاول جاهدا أن يحجز لي تذكرة على هذه الطائرة بكل الطرق رغم صعوبة ذلك الآن. . . . لأن الطائرات كلها محجوزة بالكامل حتى نهاية العام بسبب أعياد الميلاد ورأس السنة. وإنه سيتصل بي يوم الاثنين ليبلغني بما تم.

وقفت وحدي حائرا في الميدان المزدحم بالقرب من الساعة الدولية الشهيرة التي كانت تبرز جميع دول العالم على خريطتها الملونة المضيئة.

وتطلعت إلى موقع مدينة القاهرة في شمال أفريقيا وهى تتلألأ أمامى كنجم بعيد المنال وتبين أنها تشير إلى الثامنة مساء في بلادي . . . . .

بلادي التي يفصلني عنها الآن مسافة شاسعة من الآف الأميال. . . وبحر هائل ينبغي أن أعبره مهما كانت الصعاب، لعلني أصل قبل فوات الأوان ! ! !

-11-

مع اقتراب أعياد الميلاد واحتفالات رأس السنة، وصلتنى بطاقة دعوة من أختي الصغيرة المقيمة في مدينة فرانكفورت بالشمال الغربي من ألمانيا. وكانت قد أرسلت إلى من قبل - حين علمت بوصولي إلى برلين - بملابس شتوية غالية الثمن وبضع مئات من الماركات الغربية. وكتبت لي تليفونها وعنوانها في الضاحية التي تقيم بها.

كانت ناهد هي أصغر أخواتي البنات، وأجملهن وأكثرهن حيوية وطموحا وكانت قد تخرجت من الجامعة الأمريكية في القاهرة، وأتاح لها تعليمها الحصول على وظيفة جيدة في إحدى الشركات الألمانية التي تعمل في مصر.

وقد وقع مدير الشركة الألماني في غرامها، وحاول أن يغويها بشتى الطرق، ولم يستطع أن يحصل عليها إلا عن طريق الزواج فأضطر إلى إشهار إسلامه بالأزهر وعقد قرانه عليها وأقاما معا في شقة مفروشة

بالزمالك وأنجبا طفلة أسمياها سارة وبعد زواجهما بخمس سنوات اضطرته ظروف عمله إلى العودة إلى ألمانيا.

ولما علم زوج أختي الهر فولكماربيتش بمجيئي إلى برلين ضحك وقال لها:

- أخوكي " الاشتراكي" جاء للأسف في الوقت غير المناسب انصحيه بالرحيل قبل فوات الأوان.

لكنني كنت عالقاً في برلين لا أستطيع مغادرتها بسهولة. وهكذا حين جاءتني الدعوة من شقيقتي وزوجها تعلقت بها كالغريق الذي يتعلق بقشة. وقلت لنفسي أنني لو استطعت أن أرحل من هنا إلى فرانكفورت فربما استطعت أن أعود من هناك إلى مصر وأخرج من هذا المأزق الذي وقعت فيه.

واتصلت على الفور بشقيقتي وشرحت لها ظروفي. وقلت لها أنني سوف أعمل جاهدا على الوصول إليها في أسرع وقت لكنها ينبغي أن تحصل لي على تذكرة للعودة إلى مصر بأي ثمن لأكون بجوار زوجتي وابنتي قبل فوات الأوان.

وكنت أظن أن مسألة سفري إلى ألمانيا الغربية مسألة سهلة.. لكنني اكتشفت أن هناك إجراءات طويلة ومعقدة - خصوصاً لمن هو في

مثل وضعي - كان يتعين على اتخاذها وأولها الحصول على تصريح من المدرسة الحزبية - أي من قيادة الحزب الاشتراكي نفسه - بزيارة ألمانيا الغربية وهي مهمة شائكة حيث كانوا ينظرون بعين الريبة لكل من له علاقات وثيقة أو أقارب في ألمانيا الغربية خصوصا من الأجانب الوافدين أمثالى.

وثاني الخطوات وأصعبها هي الحصول على تأشيرة دخول ألمانيا الغربية من قنصليتهم في برلين وهم لا يمنحون هذه التأشيرة إلا بعد سين وجيم وتقصي حقائق دقيقة حول شخصية الزائر وهويته وتوجهاته والسؤال أيضا عمن سيزورهم - لكنني قررت أن أحاول لعلى أفلح فى مسعاى بعد أن أغلقت في وجهي كل الطرق.

وفي صباح يوم الثلاثاء استدعاني الهر جونتر في مكتبه بمبنى معهد " تليمان " وقال لي بسحنة مقطبة لم أعهدها وهو يمد لي يده بحزمة أوراق:

- ها هو تصريح الزيارة.. حصلنا لك عليه من اللجنة المركزية.. أنت تعرف الظروف لتي تمر بها البلاد.

أومأت برأسي شاكرا.

وواصل كلامه محذرا:

- أنصحك عند سؤالك في قنصلية ألمانيا الغربية عن سبب مجيئك إلى برلين ألا تذكر أي شيء عن سبب مجيئك هنا. .أنت جئت إلى برلين للسياحة فقط وليس للدراسة.أنت تفهمني طبعا - هذا لمصلحتك.

وأعطاني جواز سفري وتأشيرة بالمغادرة وأخرى بالعودة.

وفي صباح الأربعاء، كنت أقف مرتجفا من البرد الشديد في الطابور الطويل أمام قنصلية ألمانيا الغربية التي أحاط بها جنود مدججون بالسلاح. .أنتظر دوري للدخول إلى المبنى والحصول على الاستمارات التي ينبغي أن أملأها وأقدمها للمختص ليحدد لي موعدا للقاء أحد المسئولين الذي بيده منح التأشيرة من عدمه.

وجلست في الصالة الواسعة التي امتلأت بأكثر من عشرين طالبا للتأشيرة من سحن وجنسيات مختلفة ورحت املأ الاستمارات التي احتوت على أسئلة دقيقة وخبيثة، لو أجبت عنها بصدق - كما هو مفترض، لكان مصيرى أن أعتقل في مطار القاهرة حتما حين عودتي على أحسن تقدير.

وهكذا أجبت إجابات مراوغة بقدر ما استطعت - وبعد يومين ذهبت لأسأل عما آل إليه طلبى فقادني أحد الموظفين إلى مكتب في نهاية دهليز طويل أبصرت فيه بموظف يرتدي نظارات سوداء كما في

الأفلام الأمريكية عن الجاسوسية – وراح الرجل يسألنى عن جنسيتي ووظيفتى ولماذا جئت إلى برلين ؟ وأين أقيم ؟ وما علاقتي بالحزب الاشتراكي الألماني الحاكم؟ وفي النهاية ابتسم لي ابتسامة باردة واعتذر لي عن عدم قبول طلبي فهتفت يائساً :

– لماذا ؟ إنني لا أطلب الأقامة ؟ أنها مجرد زيارة لشقيقتي لبضعة أيام – فما الضرر ؟

– نحن أسفون – لا نستطيع قبول طلبك.

قلت وكأني أكلم نفسي:

– وماذا أفعل الآن ؟

أجاب ببرود وصرامة :

– هذه مشكلتك، وليست مشكلتنا.

قالها بسحنة مقلوبة تحمل كما من الازدراء واللامبالاة والسخرية فنظرت إليه حانقاً مغيظاً وأنا أود لو أبصق في وجهه، وغادرت مبنى القنصلية الرهيب وأنا ألعن الأمبريالية الألمانية والغرب الرأسمالي كله!!

في المساء كنت على موعد مع رحمانينوف وشوستاكوفيتش فى دار الأوبرا فقد وصلتنى تذكرة الدعوة فى الصباح، ووجدت مزاجى

متناسباً تماماً مع هذا البرنامج الحزين. كانوا سيعزفون كونشيرتو البيانو الثانى لرحمانينوف، وهو من أحب الأعمال إلى قلبى. كنت أداوم سماعه وأكاد أحفظ ألحانه وأنغامه عن ظهر قلب. وقد علمت أن رحمانينوف الذى كان يعيش شبه منفيا فى باريس قد كتبه فى عام 1934 وهو يرزح تحت حالة من الاكتئاب العنيف، تشبه ما أعانيه الآن.

وقد عكست موسيقاه تلك الحالة الشعورية، فجاءت موسيقاه - فى ذلك الكوتشرتو الرقيق - محملة بالحزن والأسى والضياع والحيرة والشجن الذى يذيب القلوب.

ذهبت إلى الحفل فى المساء، وحيدا بلا رفيق، لم يعد هناك من يؤنس وحدتى، لا هيلجا ولا ليلى، أصبحت كما يقول الشاعر العربى عمرو بن معد يكرب "ذهب الذين تحبهم.. وبقيت مثل السيف فردا" جلست فى مقدمة الصالة وبدأ البرنامج بعزف سوناتا شوستا كوفيتش، للبيانو والتشيللو والفيولينة. وكنت أسمعها للمرة الأولى فى حياتى. فمعرفتى بموسيقى شوستا كوفيش تمت من خلال سماع سمفونياته المليئة بالقوة والحماسة والدعوة إلى الثورة وتمجيدها، لكننى لأول مرة فى حياتى أتعرف على الوجه الآخر لهذا الموسيقار العظيم. الوجه المليء بالشجن الناعم والأسى العميق والرثاء للإنسانية المعذبة.

وبعد انتهاء عزف السوناتا الذى استغرق حوالى العشرين دقيقة، خرجت إلى الباحة الخارجية، وتوجهت إلى "البوفيه" وتناولت ثلاثة كئوس من الويسكى المحلى، وعدت إلى صالة العزف وأنا فى حالة من الانتشاء والحذر، واستسلمت لموسيقى رحمانينوف، وأنا فى حالة أشبه بالحلم، ولم أفق إلا على التصفيق الحاد، وعلى دموع خفيفة بللت وجنتى.

ارتديت معطفى وخرجت إلى الشارع الذى كللته الثلوج، واكتسى كله بالأبيض. الأرصفة، الشوارع، المبانى، السيارات، عربات الترام وحتى الناس القلائل الذين كانوا يسرعون ويبدون لى كما لو كانوا أشباحاً يجوسون فى الطرقات الشهباء.

كان البرد ينهمر بكثافة، ولكننى لم أشعر بالبرد، ولم أشعر بالرغبة فى العودة إلى البيت، بل شعرت بالرغبة فى الذهاب إلى البار القريب من ميدان ألكسندر وتناول كئوس الفودكا. لأصل إلى الحالة التى تجعلنى أرتمى فى فراشى وأنام نوما عميقا وأغيب عن الوجود.

دخلت على البار الدافئ المشتعل بالأضواء والذى كان نصف ممتلئ بالرواد وتخيرت مائدة منعزلة فى أحد الأركان، وطلبت زجاجة من الفودكا الرسية وما إن شربت كأسا كبيرة ممتلئة، على دفعات وأشعلت

سيجارة حتى تحول الشتاء إلى ربيع رائع.

وكان يجلس على مائدة منعزلة أيضا فى جوارى رجل كهل ضبطته عدة مرات ينظر إلى ويبتسم فى بشاشة، فابتسمت له وأومأت برأسى فنهض ظنا منه أننى أدعوه، وجلس إلى مائدتى وكأسه فى يديه.

رحنا نشرب معا ما تبقى من زجاجة الفودكا، وراح الرجل يسرد لى معاناته ومخاوفه، وفهمت من مجمل كلامه أنه يعيش هنا منذ ثلاثين عاماً، وأنه قد تعود على نمط الحياة الهادئة المستقرة هنا - فهو يسكن فى مسكن لائق لا يكلفه سوى أربعين ماركا شرقية لا غير، ويمتلك سيارة لطيفة من نوع "ترابنت" ولديه معاش مقبول، رغم أن أولاده وأحفاده يقيمون فى ألمانيا الغربية ويدعونه للمجىء للحياة معهم إلا أن قلبه لا يطاوعه لأنه يشعر بأن هنا وطنه الحقيقى الذى بناه مع رفاقه من العمال الاشتراكيين بسواعدهم، لكنه للأسف يشعر بالخوف لأنه يدرك أن الانهيار قادم كما الطوفان لا محالة.

رحت أطيب خاطره، وأشكو له همومى، فراح يصغى إلى ويومئ لى متفهماً. وبدا سعيداً حين علم بأننى مصرى وقال لى أنه طالما حلم بزيارة مصر، ورؤية الأهرام وأبو الهول، ونهر النيل العظيم.

وأتينا على زجاجة الفودكا، وطلبنا أخرى، ولم نستطع إكمال

ربعها، فنهضنا معاً، وعرض على توصيلى إلى مسكنى، حيث يسكن هو أيضا ف حى بانكوه، فركبت معه وكان الليل قد انتصف حين أوصلنى إلى بوابة السكن، ولوح لى مودعاً.فلوحت له، ووقفت أرقبه حتى اختفت سيارته التربنت الصغيرة تحت البرد المنهمر.

-12-

ليالى الشمال الحزينة ظلى اذكرينى اذكرينى
يسأل عليا حبيبــــى ليالى الشمال الحزينــة

فيما بعد.. وحين قيض لى أن أعود إلى بلادى بعد فوات الأوان.. وبعد أن سقطت برلين، وسقطت الدولة الاشتراكية، وبعد أن توفيت زوجتى فى المستشفى الميرى فى أعقاب نزيف حاد ومفاجىء وحمى لم يعرف الأطباء مصدرها.. دون أن يتسنى لى أن أراها أو أودعها أو أشهد مواراتها الثرى.

وقد عانيت فى الأيام التى أعقبت ذلك من عذاب الضمير ومن وحدة أليمة كنت أقضيها وحدى مع ذكرياتى. ولازمتنى بعدها ولفترة طويلة حاله من الكآبة، وشعرت بأننى قد هرمت فجأة. وكلما أوغل الشتاء وتعمقت وحدتى كنت أتذكر ليلى رغما عنى وأحاول استرجاع الأوقات السعيدة التى قضيناها معا فى برلين قبل أن نفترق.

وكنت أقول لنفسى، لو أننى بقيت إلى الآن فى برلين - أو لو كنا قد رحلنا معا إلى موسكو وعشنا هناك ولم نفترق - ألم يكن ذلك أجدى لى

من هذه التعاسة التى أحياها هنا ؟! وهل كنت ـ وقتها ـ أعلم الغيب؟ ! هكذا كنت أعزى نفسى.

وكانت ليلى قد وفت بوعدها لى واتصلت بى عقب عودتى بفترة قصيرة، وعلمت بوفاة زوجتى فعزتنى وقالت لي إن على أن أشغل نفسي بالكتابة والعمل حتى أنسى مصابى، وراحت بعد ذلك تكتب لى عن حياتها ومعاناتها فى موسكو ولياليها البيضاء قاسية البرودة.. وكتبت لى مقاطع من أغنية فيروز التى كنا نستمع اليها معا فى حجرتها والتى كنت أقول لها أنها قد كتبت من أجلها وحدها.

يا حبيبى.. أنا عصفورة الساحه

أهلى نذرونى للشمس وللطرقات

لسفر الطرقات.. لصوتك يندهلى

مع المسافات.. ويطل يحاكينى.. الريح الحزينه

ليالى الشمال الحزينه.

وروت لى فى آخرخطابتها قبل أن تنقطع عن الكتابة وتنزوى فى زوايا النسيان كذكرى جميلة لحياة من المستحيل استعادتها. أن نورس صديقتنا الفلسطينية قد وضعت مولودها هنا فى موسكو مع بداية الصيف وذوبان الثلوج وأن على السورى الذى ارتبط معها بقصة حب حقيقي معلن للكافة، توج بعقد موثق لدى مكتب توثيق العقود ببرلين بعد أن حملت منه.. قد تركها ورحل إلى دمشق متعللا بمرض

والدته واحتضارها. وأن الرجال كلهم يشبهون بعضهم البعض ـ الرجال العاديون البسطاء مثلهم مثل الأيديولوجيين أصحاب الفكر والقضية.. جميعهم جبناء هروبيون لا يتحملون المسؤولية ولا يستطيعون تحمل فكرة الألم والشقاء ولا يفلحون سوا فى الكلام المعسول وخداع النساء اللاتى يتحملن وحدهن التبعات.

وذكرتنى برحلتنا الأخيرة معا إلى فانتلتس قبل أن تسافر إلى موسكو وتتركنى فى برلين.. كانت فانتلتس هى مقر بيت الشباب الاشتراكى وهى ضاحية تقع فى الشمال الشرقى من برلين حيث صحبتنى ليلى إلى هناك فى زيارة لإحدى قريباتها.

كانت نورس تود أن تصحبنا لزيارة بعض أقربائها من الشباب هناك، لكن متاعب الحمل فى الأيام الأولى منعتها.. كانت قد اكتشفت مؤخرا أن علاقتها مع على قد اثمرت جنينا..وقد أحدث هذا الاكتشاف صدمة فيما بيننا نحن زملاؤها القريبين لكنها لم تعبأ بمخاوفنا، وقالت لنا وهى ترقد فى الفراش متوردة الوجه وعلى بجوراها يلتصق بها ويضع رأسها على صدره انها قد اتفقا على الزواج والعيش معا وأنهما سيرحلان لو لزم الأمر إلى أى مكان فى العالم لأن هناك طفلا قادما سيربط الآن بينهما ؟!

وفى الطريق إلى فانتليتس التى كان الجليد قد غطى الطرق المؤدية اليها، وحيث ركبنا قطارا قديما له كاسحة جليد فى مقدمة قاطرته.

فراحت ليلى تبتسم وتفرك يديها فى سعادة ظاهرة وتحدثنى عن نورس وسعادتها الغامرة التى ارتسمت علي ملامحها لأنها سوف تجرب الأمومة لأول مرة فى حياتها لكننى كنت متشائما على عكسها، وقلت لها إن صديقتها ساذجة لا تدرى ماذا تخبىء لها الأيام.

وحين وصلنا إلى بيت الشباب وكان عبارة عن بلوكات كالحة تشبه المساكن الشعبية فى الأحياء الفقيرة، واستقبلنا المسئولون هناك باحترام ولكن بحذر شديد، وجائت مجيدة قريبة ليلى ودعتنا الى الكافيتريا.. ولما سألناها عن سر هذا التوتر السائد الذي شعرنا به، قالت لنا ان هناك بعض حالات الإيدز قد اكتشفت بين ثلاثة من الشبان الأفارقة من الكونغو، وجنوب أفريقيا بسبب العلاقات الجنسية المنتشرة هنا بين الشباب، و أن هناك حالة من الهلع تسود فى بيت الشباب بسبب هذا المرض المهلك ـ لكن هذا الخوف والرعب لا يمنع الشباب والشابات من ممارسة الحب مع ضرورة استخدام وسائل الوقاية المتاحة!!

وفكرت أن ظهور بعض حالات الإيدز هو حادث عارض ـ ومتوقع ـ هنا وفى ذلك المكان بالذات فى ألمانيا الشرقية إذا ما قوبل مثلا بألمانيا الغربية، حيث تنتشر الدعارة بشكل رسمى ويخصص لها شوارع بأكملها معروفة للكافة تلمح فيها إعلانات النيون على أبواب الموتيلات sex shop أى محلات لبيع الجنس لمن يدفع الثمن.

أما ألمانيا الشرقية فلايوجد فيها أى شكل من أشكال الدعارة

الرسمية أو السرية، لكنها مثل كل بلدان أوربا - اشتراكية أو غير اشتراكية - تتميز بحرية العلاقات الإنسانية بين النساء والرجال، ولا يوجد هنا التابوهات الشرقية التى تقيد هذه العلاقات، وتسمح بها فى إطار أشكال الزواج الشرعى والمدنى، وأشكال الدعارة غير الرسمية - فضلا عن تجارة الرقيق الأبيض - التى تغمض السلطات أعينها عنها لارتباطها بالأنشطة السياحية.

وربما كانت هذه الحرية - فى بلاد أوروبا بعامة - هى ما يمثل الصدمة الحضارية التى يعيشها القادمون من الشرق، والتى تحدث عنها كتاب ومفكرون مشاهير عاشوا التجربة، مثل رفاعة الطهطاوى فى تلخيص الإبريز ومحمد عبده فى مقالاته العديدة، وتوفيق الحكيم فى "عصفور من الشرق" والطيب صالح فى "موسم الهجرة إلى الشمال" وبهاء طاهر فى "الحب فى المنفى"..هذه الصدمة الحضارية التى يعانيها الشرقيون الوافدون إلى بلدان أوروبا تدير رؤوسهم فى البداية حتى يستوعبونها، ويدركون أنها "ثقافة مختلفة" وفكر مختلف..وعقائد مختلفة..لكن الشباب من الوافدين من أفريقيا وبلاد الشرق العربى الذين تبهرهم تلك الحرية التى تبدو لهم كترخيص مجانى بالانحلال يغرقون فى إشباع رغباتهم المكبوتة حتى يستفيقوا ويصيبهم الملل والاكتئاب أو يصيبهم المرض. ثم يعتادون على نمط الحياة فى تلك البلاد أو يكرهونها ويفروا عائدين إلى بلادهم محملين بذكريات لا تنمحى مع الأيام.

وفى المساء دعتنا مجيدة إلى حفلة ديسكو راقصة فى المسرح المخصص لذلك. . وجلست مع ليلى فى أحد الأركان وأنا أشعر بأننى كهل عجوز وسط هذا الجمع الحاشد من الشباب المتفجر حيوية. . وحاولت ليلى أن تجذبنى معها الى حالبة الرقص، لكننى رفضت بحزم حتى لا أصبح مثارا للسخرية وجلست من بعيد أرقبها وهى ترقص مع رفاقها من الشباب. .وانتابنى نوع من الرثاء لنفسى والسخط عليها أيضا لأننى حضرت إلى مكان لم يكن ينبغى لى أن أحضر اليه.

ودعتنا مجيدة بعد الحفل الراقص إلى المبيت معها فى غرفتها حتى صباح الغد لأنه من الصعب جدا العثور على مواصلات للعودة إلى برلين فى تلك الساعة المتأخرة، فصعدنا معها إلى غرفتها التى كان يوجد بها سريران من المعدن لا يتجاوز عرض الواحد منها مترا واحدا لا غير.

وقد نامت مجيدة فى فراشها مع صديقها الفلسطينى الذى كان ينفق ببذخ يبلغ حد السفه، وكانت تبدو عليه أمارات الثراء، وراحا يتبادلان القبل و الأحضان ويمارسان الجنس معا بشكل فاضح وصاخب دون أن يعبأ بوجودنا معهما فى الغرفة.

ونمنا معا أنا وليلى فى الفراش الآخر نكاد نتلاصق. .وأغمضت عينى وقد غمرنى إحساس بالحرج الشديد مما يجرى قريبا منا. وحاولت أن أوليها ظهرى لكنها احتضنتنى بقوة فشعرت بحرارة

جسدها الشاب، ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى تنام فيها بجوارى. وثارت غرائزى وكدت أهم بها لولا خوف غريب استولى على، وهواجس ملحة اطفأت رغبتى خصوصا بعد أن تذكرت نورس وما حدث معها وتذكرت زوجتى وابنتى اللتين تنتظرانى، فتملصت من بين ذراعيها برفق وسيطرت على نفسى بصعوبة وقمت من الفراش وأخذت دوشا باردا وغادرت الحجرة الى الكافيتيريا حيث قضيت الساعات القلائل المتبقية حتى انبلاج الفجر مع الشباب العرب فى لعب الورق والتدخين واحتساء القهوة والحديث فى السياسة وما إن أشرف الصباح حتى غادرنا المكان أنا وليلى، وركبنا القطار العائد إلى برلين وكل منا غارق فى أفكاره.

-13-

قبل أن ينقضي عام 1989، وفي الأيام القلائل التي تبقت من ديسمبر. تسارعت الأحداث بشكل متلاحق، فسقط إيريش هونيكر رئيس الجمهورية ورئيس الحزب والحكومة...وسقط معه بعض الوزراء من رموز الفساد....

وجاء من بعده نائبه أيجون كرينتس الذي اشتدت عليه الحملة أيضا، التي كان يتزعمها أحزاب وصحف اليمين الألماني الممولة والمسنودة من حكومة " بون " وتحدد موعد لإجراء انتخابات عامة في البلاد..وراح أعضاء من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي يسألوننا نحن الغرباء الوافدين عن تقييمنا للوضع الذي نشاهده بوصفنا مراقبين محايدين ولم نكن نملك الإجابة الشافية بعد أن أدركنا من فترة معايشتنا القصيرة أن الممارسات الخاطئة، وسياسة النظام الحاكم هي التي أوصلت الأمور إلى ذلك المنعطف الأخير والخطير.

وارتفعت راية ضرورة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، حتى لا تنهار الدولة

التي كانت نذر سقوطها السريع والمتمم، تلوح في الأفق !

وفى صباح يوم الاثنين...وقبل أن أتلقى اتصال الرفيق من براغ جاءت ليلى لتودعني بعد أن علمت بعزمي على السفر يوم الثلاثاء وقالت لى إنها سوف تسافر إلى بودبست ظهر اليوم، ومنها..بعد يومين أو ثلاثة..إلى موسكو...وتركت لي العنوان الذي يمكنني مراسلتها عليه هناك..وأكدت لى أنها سوف تتصل بي هاتفيا في مصر، وصافحتني بوجه عرته الكآبة والحزن، ومضت.

وودعني الرفاق العرب الذين تعين عليهم السفر أيضا، ومنهم... نورس وعليا...كل إلى وجهته، فوجدتني في مساء ذلك اليوم أكاد أكون المقيم الوحيد في المبنى، مع الرفيق بشار من لبنان...وفى التاسعة مساء وبعد أن أدر كنى اليأس، رن جرس التليفون في حجرة الإدراة، فاختطفت السماعة لأسمع صوت الرفيق في براغ يعتذر لي لأنه لم يتمكن من العثور على أى حجز في أى طائرة مسافرة غدا الثلاثاء إلى القاهرة وأنه سوف يحاول أن يعثر لي على مقعد في طائرة الثلاثاء بعد القادم قلت له أننى لا أستطيع أن أنتظر ثمانية أيام أخرى وأنا أكاد أكون وحدي هنا في المبنى السكنى...بعد رحيل الزملاء...ماذا افعل في برلين وحدي وزوجتي في مصر مهددة بالموت...عليه أن يتصرف... ينبغي أن أسافر إلى القاهرة خلال الثلاثة أيام القادمة بأى ثمن..فراح

يهدىء من روعي.. وقال إنه سوف يبذل قصارى جهده للعثور على أى وسيلة لعودتي ولو بالسفر ترانزيت إلى رومانيا أو أى بلد آخر. ومنها إلى القاهرة، رغم المشقة التي سألقاها، فقلت له أتوسل إليك أن تحاول، وودعني على وعد بالاتصال.

ومرت على الأيام الثلاثة التالية كما الدهر.. وحاولت أن أتصل بالقاهرة يوم الجمعة، فلم أجد أحدا بالمنزل، وانتظرت لليوم التالي وعاودت الاتصال مرارا وردت على عندئذ شقيقة زوجتي الكبرى فخفق قلبي بعنف... قالت بصوت ملئ بالعبرات أن زوجتي وضعت طفلها وهو بحالة جيدة والحمد لله لكن شقيقتها لم تغادر المستشفى لأن صحتها ليست على ما يرام فقد نزفت كثيرا، وأمر الأطباء ببقائها تحت العناية حتى تسترد عافيتها وتعود بعدها للبيت.

ولما سألت عن ابنتي ولاء، قالت إنها صممت على البقاء بجوار أمها في المستشفى، فطلبت منها عنوان وتليفون المستشفى وقلت لها إننى سوف أكلمهم هناك مساء بعد غد قبل أن أسافر يوم الثلاثاء لأبلغهم بموعد وصولى.

وخرجت إلى الشارع الذي كانت تجتاحه رياح ثلجية عنيفة، وقد انقبض قلبي، وظللت أمشى على غير هدى، إلى أن هدني التعب ووصلت إلى البيت منهكا مكتئبا حزينا، لأستلقى على فراشي دون أن أخلع ملابسى.

لا أدرى كيف مر عليّ اليومان وأنا أترقب اتصال الرفيق من براغ، الذي أخلف وعده لي وتركني نهبا للقلق....كنت أجلس بالقاعة الموجود بها التليفزيون مع الرفيق بشار الذي كان ينتظر تحديد موعد لسفره إلى بيروت، ندخن ونحن نتطلع إلى شاشة التليفزيون دون أن نشاهده.

ولما حل يوم الاثنين، موعد اتصالي الهاتفي بالمستشفى للاطمئنان على زوجتي وابنتي، وكان النهار لا يزال في منتصفه وإن غابت الشمس كعادتها، نزلت إلى الباحة الخارجية أمام المبنى ورحت أتمشى محاولا تبديد قلقي وتوتري، وتطلعت إلى مقياس الحرارة المعلق عند المدخل الخارجي للمبنى، وكان المؤشر يشير إلى ما دون الصفر بحوالى عشر درجات...ذهبت إلى الكافيتريا واحتسيت بضع فناجين من النسكافية بدون سكر وعدت إلى حجرتي ثانية.

حاولت أن أتلهى بقراءة بعض الصحف والمجلات التي كانت تصلني في البريد، لكنني لم أفلح وتناهى إلى سمعي صوت فيروز يأتينى متسللا من حجرة بشار...كانت تغنى أغنيتها التى توجع قلبي كلما سمعتها:

ردني إلى بلادي......مع نسائم غوادي

مع شعاع هوى......عند شاطئ ووادي

ردني...ردني......ردني إلى بلادي

لم أتحمل مواصلة سماع الأغنية، فارتديت ملابس الخروج، وقررت أن أتناول عشائي في الخارج.

تمشيت متثاقلا حتى محطة الترام القريبة، ووقفت على الرصيف المتجمد أنتظر وحدي وأنا أروح وأجيء لأبدد إحساسى بالبرودة وأقبل الترام بعد دقيقتين فركبت في العربة الخلفية:

وفوجئت بأن عربة الترام خالية، إلا من رجل وحيد مسن في عمر أبى تقريبا، يرتدى ملابس رثة متسخة، ويجلس واضعا رأسه بين كفيه.

جلست بعيدا عنه، لكنني ألفيته ينهض ويومئ لي برأسه محييا ويجلس قبالتي هامسا: " كودينتاج " نهارك سعيد بالألمانية.

وفاحت عندئذ رائحة الخمر القوية من فمه فأدركت من ملامحه الوسنانة أن الرجل مخمور تماما.

راح يحدثني بلغته دون أن أفهم الكثير مما يقوله، لكنني أحسست بمدى احتياجه للكلام مع أى إنسان، فتظاهرت بالإنصات إليه ورحت أعزم عليه بسجائري المصرية من آن لآخر. . .وربت على كتفه بعطف وإشفاق حقيقي، ففوجئت بدموع الرجل تنساب من عينيه لا إراديا، فشعرت بالحزن من أجله.

وحاولت أن أنهض لأنزل المحطة التالية، هاربا من هذا الموقف

الذي يفوق احتمالي.لكن الرجل أمسك بيدي برفق مومئا له برأسه في استعطاف، وكأنه يرجوني ان أبقى معه، فبقيت، ومددت يدي في جيبي خلسة واجتبت ورقة نقدية من فئة العشر ماركات وأطبقت عليها ودسستها في كف الرجل العجوز....فانتفض وأبى أن يأخذها رغم عوزه الظاهر، فأحسست بالخجل من نفسي والتزمت الصمت.

وحين أقبلت محطتي التي سأركب منها مترو الأنفاق، تناولت معطفي لأرتديه، وتهيأت للنهوض استعدادا للنزول فنهض الرجل وهو يترنح وقبلني في خدي بحنان أبوى أثار عطفي واشفاقى.

غادرت الترام مسرعا، ولوحت للعجوز محييا وأنا أتجه إلى سلالم المترو الهابطة إلى أسفل، وقبل أن أغادر الرصيف سمعت صوت صرخة ملتاعة ورائي، وصوت ارتطام، وصفارة طويلة.

نظرت خلفي فوجدت صاحبي العجوز ملقى على الرصيف المكسو بالجليد ..نصفه السفلى معلق بسلالم الترام الذي كان قد توقف بعد تحركه ببضعة أمتار، ونصفه العلوي...جذعه ورأسه مكوم على الأرض الثلجية، ناصعة البياض، وقد حفرت رأسه أخدودا قصيرا في الثلوج.

هرعت نحوه فزعا فألفيته فاقد النطق تماما، وقد شحب وجهه الذي كان متوردا منذ لحظات وغادرته دماء الحياة، ولمحت قطرات حمراء على مسافة متباعدة تخضب الرصيف الأشهب وبعضها ينساب في

خيط رفيع من اذنى الرجل، ولمحت سائقة الترام، وهى امرأة شابة تأتى مسرعة من كابينة القيادة وترطن بلغتها...فهمت من نظرتها إلى أنها تطلب مساعدتي فحملت الرجل معها بعيدا عن سلالم الترام الحديدية، ومددناه على الرصيف الجليدي. ولما لاحظت المرأة، أننى أجنبى، شكرتني معتذرة وتركتني أمضى لحالي.

كان المساء يهبط سريعا، جلست في المقهى الشهير في ميدان ألكسندر أرقب من خلف الزجاج السميك، نتف الثلج المتساقط بكثافة، على وجوه المارة المسرعين، والريح الجليدية وهى تعصف بهم وتجعلهم يهرعون إلى المقاهي والبارات والمطاعم المتناثرة في أرجاء الميدان.

رحت أدخن مستمتعا بدفء المكان وأتطلع إلى ساعتي التي كانت تقترب من السادسة موعد اتصالي المنتظر.

غادرت المقهى، وألقيت نظرة سريعة على الساعة الدولية في مواجهته كان توقيت القاهرة يقترب من السابعة...لابد من أن الليل قد حل في وطني قلت لنفسي وأنا أهرع إلى يمنى القصر الجمهوري في طرف الديوان...واحتميت في دفء الداخل.

لمحنى الرجل المسئول عن الاتصالات ويبدو أنه تذكرني إذ قال مبتسما:

- اكتبين......أومأت برأسي محيياً وقلت:

- كايرو

فأشار لي بالجلوس برهة في الاستراحة

وكان هناك خليط من الناس ينتظرون مكالماتهم....أوربيون وزنوج وعرب وهنود وكوريون

لم أستطع الجلوس هادئا، فرحت أتمشى عبر الممرات الزجاجية المزدانة بالنباتات النادرة، وأنا أدخن وصورة العجوز الملقى على الرصيف الجليدي وهو ينزف الدم من أذنيه لا تفارقني.

قلت لنفسي وأنا أشعر بالذنب، لابد أنه نهض ليتبعني بينما كان الترام يتحرك، لعلني كنت أذكره بعزيز فقده، لو أننى توقفت برهة لأكلمه أو لو بقيت معه لفترة بسيطة حتى ينزل قرب منزله لما أصابه شيء.

وتنبهت على صوت موظف الاتصالات ينادى على " كايرو... كايرو " ويلوح بيده: تسغاى.يعنى الكابينة الثانية.

دخلت وأغلقت الباب الزجاجي خلفي....تناهى إلى صوت ابنتي متحشرجا وهى تقول:

- ازيك يا بابا...وحشتني قوى يا بابا...انت مش عاوز تيجى ليه ؟ قلت ملهوفا:

- أنا جاى يا حبيبتي بإذن الله بكرة أو بعد بكرة بالكتير والله أنا

غضب عني... موش بإيدى.. ماما فين.. خليني أكلمها.

- ماما تعبانة قوى.... أرجوك تعالى بسرعة.

- يابنتى خليني أكلم حد كبير.. نادى لي الدكتور من عندك.

- مافيش حد قريب من هنا.

- انتى بتتكلمى منين؟.

- باتكلم من السويتش بتاع المستشفى

- طيب فين خالتك.؟

- قاعدة هناك مع ماما في أوضتها.

يعنى ماما حالتها مش كويسة.

ماما بتموت يا بابا أرجوك تعالى بسرعة.

وتناهى إلى صوت بكاء البنت وهو يتباعد ويخفت وانقطع الإرسال بيننا.

خرجت إلى الشارع، وكان الثلج لا يزال ينهمر والريح تشتد وتكاد تتحول إلى عاصفة وأنا لا أكاد أحس بها..,وألحت على ذهني مرة أخرى بدون سبب صورة قطرات الدم وهى تلمع فوق الثلج، وجثة الرجل العجوز ملقاة هامدة بلا حراك.

وتخيلت جثة زوجتي ملقاة بلا حراك على سرير قذر في المستشفى الحكومي...وأحسست بالرغبة الحارة في البكاء من شدة عجزى وقلة

حيلتى.لكن دموعي لم تطاوعنى...وكنت في مسيس الحاجة...في تلك اللحظة...لأي إنسان أكلمه.

ألفيت نفسي واقفا في الميدان، وحيداً، وسط زحام لا يعرفني فيه أحد، ولا يعبأ بي احد بالقرب من الساعة الدولية المضيئة، وتطلعت إلى مكان القاهرة على اللوحة وهى تومض عند خط عرض 25 شمال مدار السرطان.

وعبرت سماء برلين المدلهمة بالسحب في تلك اللحظة، طائرة من نوع بوينج، راحت أضواؤها تتلألأ كنجوم بعيدة تبين ثم تختفى حتى ابتلعتها الظلام.

تخيلت أنها طائرة الإنتر فلوج المقلعة إلى القاهرة...وأغمضت عيني وتخيلت أننى على متنها، محتمى بدفئها، عائدا إلى بلادي في تلك اللحظة..عائدا إلى أهلى..إلى ابنتي...وزوجتي التي تحتضر الآن في المستشفى.

وفتحت عيني على العالم الغريب الذي يكتنفنى....وانتبانى حنين كاو، وكآبة غامرة، ويأس فاجع..وتزودت في أعماقى في تلك اللحظة، كلمات وألحان أغنية فيروز التي تعتصر القلب :

ردنى إلى بلادى

مع نسائم غوادى

مع شعاع هوى

عند شاطئ ووادى

ردنى... ردنى... ردنى إلى بلادى

وهتفت من داخلي بحرقة:

- يا إلهى من يردنى الآن إلى بلادى ؟!

عاطف فتحي

1996/11/12

الكاتب

عاطف فتحى

- مواليد القاهرة القديمة - حى خان الخليلى فى 12 نوفمبر 1947
- درس السينما والنقد والفلسفة والاقتصاد السياسى
- رئيس تحرير مجلة أبيض وأسود السينمائية التى تصدر عن هيئة قصور الثقافة
- عضو اتحاد كتاب مصر - عضو اتحاد نقاد السينما المصريين
- كاتب للقصة القصيرة نشرت أعماله منذ عام 1970

فى: مجلة المجلة ، والكاتب ، والقاهرة، وإبداع ، وجريدة الجمهورية، ومجلة العربى الكويتية، والمجلة السعودية، واليوم السابع ، والمصرى اليوم ، والبديل، والشاهد الليبية

- صدر له كتابان فى النقد السينمائى عن مطبوعات مهرجان القاهرة السينمائى هما:

..فاتن حمامة سيدة الشاشة العربية ..2003

..يحيى حقى عاشق تراب الوطن.. 2004

- صدرت له دراسة نقدية عن: محمود أمين العالم المفكر والإنسان 1996 عن هيئة قصور الثقافة.. سلسلة أصوات أدبية.
- حصل على جوائز عديدة من نادى القصة فى مصر وفى مسابقات عربية بالكويت والعراق وباريس

من أعماله القصصية :

- أغنية للخريف قصص قصيرة 1997 عن المجلس الأعلى للثقافة

- لماذا تغرد العصافير فوق القبور 2010 عن هيئة قصور الثقافة سلسلة أصوات أدبية .

من أعماله الروائية :

1 -أيام في الغربة 2006 فازت بالجائزة الأولى من نادى القصة " القاهرة" .

2 -حياة عادية 2010 روايات الهلال عدد ديسمبر 2010

3 -سفر الثورة 2013 عدد يناير عن روايات الهلال

من أعماله المسرحية :

1 -محاكمة عرابي . . مسرحية وثائقية 2001 سلسلة آفاق المسرح – هيئة قصور الثقافة

2 -ملك الكاسيت 2003 عن سلسلة نصوص مسرحية هيئة قصور الثقافة

3 -المبارزة 2006 سلسلة نصوص فائزة – بهيئة قصور الثقافة (الجائزة الأولى في الإعداد عن نص روائي لأنطون تشيكوف)

تحت الطبع :

1 -أيام البنفسج – مجموعة قصص قصيرة

2 -الموت في المنفى – دراسة عن شاعر الثورة العرابية محمود سامي البارودي .

بسقوط سور برلين فى نوفمبر من عام 1989، وانفتاح كل المعابر المؤدية إلى برلين الغربية أمام الألمان الشرقيين، بدأ سقوط الدولة وسقوط النظام الاشتراكى، ليس فى شرق ألمانيا فحسب، وإنما فى شرق أوروبا كلها... رومانيا، المجر، بلغاريا، وبولندا والتشيك، وبعدها سقط الاتحاد السوفيتى نفسه - الذى كان يجمع كل هذه الدول والدويلات - فى مطلع التسعينيات، لتنتهى القوة العظمى الثانية التى كانت تخلق نوعًا من التوازن الكابح للقوة الإمبريالية الأولى المتمثلة فى الولايات المتحدة الأمريكية التى أصبحت هى القوة الوحيدة المهيمنة على مقدرات العالم والمتحكمة فى مصيره.







الثمن: جنيهان